حكمــة الحجــاب .
تـأليف: السيد العلامة الحجة محمد بن محمد بن مطهر المنصور .
الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م ، مكتبة مركز بدر للطباعة والنشر والتوزيع .
www.almahatwary.org

البروق اليمانية



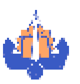
حكمة الحجاب

تأليف

السيد العلامة الحجة

محمد بن محمد بن مطهر المنصور

أطال الله عمره



مكتبة بدر للطباعة والنشر والتوزيع

حكمـة الحجـاب .
تـأليف: السيد العلامة الحجة محمد بن محمد بن مطهر المنصور .
الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م ، مكتبة مركز بدر للطباعة والنشر والتوزيع .
www.almahatwary.org

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م



مكتبة مركز بدر للطباعة والنشر والتوزيع

الجمهورية اليمنية – صنعاء
Republic of Yemen- Sana'a

تلفون: ٢٦٩٠٩١-٢
Tel:269091-2

فاكس:٢٦٩٠٧٩– ص– ب:٣٨٠١
Fax: 26907 P.O.Box:3801 .

www.almahatwary.org

info@almahatwary.org

حكمـة الحجـاب .
تـأليف: السيد العلامة الحجة محمد بن محمد بن مطهر المنصور .
الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م ، مكتبة مركز بدر للطباعة والنشر والتوزيع .
www.almahatwary.org



حكمـة الحجـاب .
تأليف: السيد العلامة الحجة محمد بن محمد بن مطهر المنصور .
الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م ، مكتبة مركز بدر للطباعة والنشر والتوزيع .
www.almahatwary.org

مقالة

حكمة الحجاب

من المجلد الأول من البروق اليمانية

تأليف

السيد العلامة/محمد بن محمد المنصور

تمهيد

أيها القارئ الكريم، لا تَعْجَل بنقدٍ أو إيرادٍ حتى تلمَّ بجميع المقالة، فأغلب ظني أن في جملتها الجواب، قال شاعر قديم:

أخا العلمِ لا تَعْجَل بعيبِ مُصنِّفٍ ... ولم تَتَيَقَّنْ زلةً منهُ تُعْرَفُ
فكم أفْسَدَ الرَّاوي كلامًا بعقله ... وكَم حَرَّفَ الْمَنقُولَ قَومٌ وصحَّفُوا
وكَم ناسخٍ أضْحَى لِمَعْنَى مُغَيِّرًا ... وَجَاءَ بِشَيءٍ لَمْ يُرِدْهُ الْمُصَنِّفُ

كاتب المقالة

نبذة عن المؤلف

ولـد محمـد المنصـور في ٨جمـادى الأولى سـنة ١٣٣٣هجريـة قمريـة في شهارة، وانتقل إلى صنعاء مع والـده آخـر سـنة ١٣٣٨هجريـة، ودرس في معلامة الخوجة عمر (الْكُتَّاب) بمسجد توفيـق في بـير العَـزَب بصـنعاء، ولـه ديوان شعر لا نكثر الحديث عنه فهو في طريقه إلى المطبعة.

وقد تـزوج أكثـر مـن امـرأة ورزق مـن الولـد أربعـة أبنـاء محمـد وعبـد الوهاب وإبراهيم ويونس.

ونسبه إلى الإمام المنصور القاسـم بـن محمـد بـن علـي المدفون بشـهارة الأمير من جبال الأهنوم.

ومن سمات الوالد محمد ملازمة الـذكر لله سبحانه وتعـالى، وقـد رزقـه الله التواضع وسماحة النفس والسخاء ولاسيما العطف على طلبة العلم.

فلــو لم يكــن في كفــه غــير نفســه   لجــــاد بهــــا فليتــــق الله ســــآئله

وهو شخصـية لا تسـتخفها الأحـداث، بـل يظـل كالجبـل الشـامخ ولا ينجر إلى الصراع ليؤيد فريقًا على فريق، بل يرى فيـه المتصـارعون متنفسًـا ومفزعًا للجميع، معترفين بأن سـاحته نظيفـة ونفسـه نقيـة. وهـو مـع ذلـك شـديد الـذكاء، ومـن غريـب أمـره أن الله نجـاه طـوال حياتـه مـن مزالـق الإحتواءات منذ اشتغل مع الحكومة إلى يومنا أكثـر مـن ٥٤سـنة إلى يومنـا هذا. وتقلد مناصب مرموقة في كـل هـذه الحقـب، فكـان أيـام الإمـام يحيى

محررًا لوزارة الخارجية، وأيام الإمام أحمد نـاظرًا للوصـايا اليمنيـة، وفي فتـرة أحد حكام مقامه وأحد كتابه.

وتقلـد في عهـد الثـورة عضـو مجلـس السـيادة؛ أول الثـورة، ثم وزيـرًا للعدل، ثم وزيرًا للأوقاف وعضوًا للمحكمة العليا الاستئنافية المسماة حاليًّا محكمة النقض والإقرار.

والخلاصة فهو مثل الإمام زين العابدين بن علي بن الحسين، أجمع الناس علـى طهارتـه ونقـاوة تأريخـه، فـلا ضـرر منـه ولا ضـرار، بـل رجـل سـلم وسلام، وأمن وأمان، وتقوى وعفة، وكرم ووفاء.

وقد استوفينا ترجمته في كتاب برق يماني على قدسية الإيمان وهو يماني

حكمـة الحجـاب .
تأليف: السيد العلامة الحجة محمد بن محمد بن مطهر المنصور .
الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م ، مكتبة مركز بدر للطباعة والنشر والتوزيع .
www.almahatwary.org



[مقدمة]

الإسلام هو أحكم شريعة، وأصلح نظام لحياة الناس الفردية والأسرية والاجتماعية – بلا ريب – عند الموازنة بينه وبين سائر الملل، وقد كونه الله من واجبات حتمًا، ومن مسنونات؛ فِعْلُهَا خير من تَرْكِها، ومن اجْتناب محظورات حتمًا، ورَغَّبَ في ترك أشياء؛ لأن تركها أولى من فعْلها، وأطلق للإنسان الحرية فيما عدا ذلك، يفعل ما شاء، أو يترك، وهذه هي الأحكام الشرعية الخمسة.

فمتى طبَّق المجتمعُ أحكامَ الإسلامِ كاملة، ونظامه، طابت الحياة، واتَّسَمَتْ بالسعادة، واطْمأنَّ الجميع، وسادَ المجتمعَ الأمنُ والاستقرارُ والرخاءُ حتمًا، واحْتُرِمَت الدماء والأعراض والأموال بكل ما يَدُلُّ عليه هذا اللفظ من معنى، وتعاونوا فيما بينهم على الخير والبر والتقوى، وصلحت أمور الخاصة والعامة حالا ومالا، دنيا وأخرى حتمًا، ولم يَجِد الفساد والشقاء له مكانا يضع فيه قدما واحدة البَتَّة.

لهذا؛ فالإسلام كلٌّ – عقيدة وعملا وشريعة – مُؤلف من جزئيات أحكامه ونظامه، ولا يصدق إلا عليها مجتمعة، لا على بعضٍ دون بعض،

وليس كليًّا يصح أن يصدق على بعض أجزائه، بل هو كلٌّ كالعلاج المُرَكَّبِ، لا تتسمى به أجزاؤه، ولا يطلق على بعضها، بل لا بُدَّ من جمعها، وخلطها، ومراعاة النِّسَبِ المقررة حتى يطلق عليه ذلك الاسم، وحتى تنفع المعالجة به، وإلا لم ينفع، و لم يطلق عليه ذلك الاسم.

فالإسلام إذن كلٌّ عالج جميع نواحي الحياة، في السراء والضراء، والشدة والرخاء، والمنشط والمكره، والسلم والحرب؛ الفردية والاجتماعية، عالجها بالبلسم النافع، والدواء الناقع، في السلوك والأعمال والتروك، وبأعدل الحكم بين المختلفين.

فإذا طبَّق الفردُ أو المجتمعُ بعضَ الإسلام، وترك بعضا، فلا بُدَّ أن تحدث نتائج سيئة من جرَّاءِ تَركِ بعضه، وأي خلل أو فساد في بنية المجتمع أو حالة الفرد إنما تأتي لمخالفة الإسلام، والخروج عنه، والتَّمَرُّدِ عليه، والتفريط فيه.

مثلاً؛ حرَّم الإسلام الزنا لمضارِّه المحققة بالجنسين على سواء، ولما تؤول إليه هذه المضار بالفرد والمجتمع، وحرم مع ذلك كل ما يُمَهِّدُ إليه السبيل، وسَدّ جميع السبل المؤدية إلى هذا الضرر والفساد، فأمر الجنسين مثلا بغض البصر، وقال: ((**الأولى لك والثانية عليك**))[1]، لما في التحديق من الخطر، ومما قيل فيه: ((**النظر بريد الزنا**)).

---

[1] حديث علي أخرجه الترمذي ٥/ ٩٤ رقم ٢٧٧٧ . وأبي داود في سننه ٢/ ٦١٠ رقم ٢١٤٩ . ومسند أحمد بن حنبل ٩/ ١٨ رقم ٢٣٠٥٢ .

يقول ديك الْجِنِّ: [١]

لما نَظَرْت إِلَيَّ عَنْ حَدَقِ الْمَهَا ... وبَسَمْتِ عَنْ مُتَفَتِّحِ النَّوَّارِ

وَعَقَدت بين قَضيب بان أهْيَف ... وكَثيب رَمْل عقدةَ الزُّنَار

عَفَّرْتُ خَدِّيَ في الثَّرى لك طَائعٌ ... وَعَزَمْتُ فيك عَلَى دُخُول النَّار

والنظرة الواحدة كفيلة بأن تحول مجرى حياة المرأة والرجل، وتعصف بما هو عليه، وتنسف المبادئ نسفًا، قال صُرَّدُرّ [٢] من قصيدة عصماء:

وَمَن يَجْعَل الأجْفَان حجابَ قَلْبه ... أذن علـى أحْشَائه للفَواقِر

ويقول إيليا أبو ماضي [٣]:

---

[١] كبير الشعراء ، أبو محمد ، عبد السلام بن رَغبان الكلبي الحمصي السَّلَمَاني الشيعي من شعراء أهل البيت عليهم السلام فاق شعراء عصره وطار ذكره ، ولد سنة ١٦١هـ بسلمية ومات سنة خمس أو ست وثلاثين ومائتين وعمره أربع وسبعون . ينظر سير أعلام النبلاء ١١/ ١٦٣ رقم ٦٧ .

[٢] علي بن الحسن بن علي بن الفضل البغدادي، أبو منصور: شاعر مُجيد ، كان يقال لأبيه ((صرّبَعْر)) لبخله، وانتقل إليه اللقب حتى قال له نظام الملك : أنت ((صردر، لا صر بعر)) مدح القائم العباسي ووزيره ابن المسلمة . قال الذهبي : لم يكن في المتأخرين أرق طبعا منه مع جزالة وبلاغة، تقنطر به فرسه، فهلك، بقرب خراسان سنة ٤٦٥هـ ، ١٠٧٣م . له ((ديوان شعر)) مطبوع ينظر الأعلام ٢٧٢/٤ .

[٣] إيليا بن ضاهر أبي ماضي ، من كبار شعراء المهجر، من أعضاء ((الرابطة القلمية)) ولد في قرية المحيدثة بلبنان سنة ١٨٨٩م ، سكان في الإسكندرية سنة ١٩٠٠م يبيع السجائر وأولع بالأدب حفظا ومطالعة ونظما، هاجر إلى أمريكا ١٩١١م ، أصدر جريدة (السمير) أسبوعية سنة ١٩٢٩ م فيومية في بروكلن إلى أن توفي بها سنة ١٩٥٧ م . ينظر الأعلام ٢/ ٣٥ .

والأبيات من قصيدة ((روحي فداك)) ينظر ديوان إيليا أبو ماضي ٥٤٥ .

لَمَّـا رَأَيْـتُ الـوَرْدَ في خَـدَّيْك وَشَـقَائِقُ النُّعْمَـان في شَـفَتَيْك
أَيْقَنْـتُ أَنَّـكِ جَنَّـةٌ خَلاَّبَـةٌ وانسقْتُ من بَعدِ الْمَشِيْبِ إليكِ

حتى لو ظاهرت المشيب الرهبنة، لإعادته إلى التصابي، وفي هذا يقول أبو بكر بن دريد[1] في مقصورته[2] :

ولاعَبَتْنِـي غَـادَةٌ وَهَنَانَـةٌ تُضْنِي وفي تَرْشَافِهَا بُرءُ الضَّنَا
لَـو صَـابَتِ القَانِـتَ في مُخْلَوْلَـقٍ مُسْتَصْعَبِ المسلَكِ وَعْرِ الْمُرْتَقَى
أَلهَـاهُ عَـنْ تَسْـبِيْحِهِ وَدِيْنِـهِ تَأْنِيْسُـهَا حَتَّـى تَـرَاهُ قَـدْ صَبَا

وفيها؛ يتشوق إلى بريد ثنايا الغيد وبروق ألحاظها المبيد:

سـقى العقيـقَ فـالحزيزَ فـالملا إلى النُّحيـتِ فالقُرَيَّـاتِ الـدُّنا
فالمربـدَ الأعلـى الـذي تَلْقَـى بِـهِ مَصَـارِعَ الأُسْـدِ بِأَلْحَاظِ الْمَهَـا

كذلك مَنَع الإسلامُ الاختلاطَ وسفر المرأة بدون محرم؛ لأن ذلك يعرض المرأة لجشع الرجل، ويعرض الرجل لفتنة الأنثى.

كما حرم انفراد الأنثى بأجنبي مطلقا، وقال: ((ما خلا رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان))[3]؛ لأنه متى عارض عفافَها جشعُ الرجل، فلن

---

[1] أبو بكر بن دريد: محمد بن الحسن بن دُرَيْد الأزدي، من أزد عمان من قحطان من أئمة اللغة والأدب، من أعلم الشعراء وأشعر العلماء ولد في البصرة ، انتقل إلى عُمان فأقام اثني عشر عاما، ثم عاد إلى البصرة، ثم رحل إلى نواحي فارس ثم رجع إلى بغداد فأقام إلى أن توفي سنة ٣٢١هـ . معجم المؤلفين ٣/٢١٧.

[2] ينظر مقصورته ص ٣٩ – ٤٠ .

[3] أخرجه الترمذي بلفظ ((لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان)) ٣/ ٤٧٤ رقم ١١٧١ . وذكره في الترغيب والترهيب في كتاب النكاح وما يتعلق به ٣/ ٣٨ رقم ١٤ .

يقوى العفاف على الصمود أمام الجشع في الغالب، ولا سيما أن امتناعها مهدد بطروِّ رغبتها، فإرادته تكون النافذة، ونهاية الممانعة في الغالب الانهيار، ولا سيما أن تَحَوَّلَ التَّمنع إلى رغبة أقرب من حبل الوريد.

وكلما حصل الانفراد والاختلاط زالت الرقابة، وارتفعت الموانع، ووجدت البواعث والدوافع، واستيقظت الحوافز النائمة، ولعن الله من أيقظها بيقين، وتواجدت المقتضيات، فماذا عسى يكون إلا المقتضى أيها المتغابون؟!

هذا؛ ولا شك أن المتحلي بالعفاف الصارم من الجنسين هو النزر القليل، والاختلاط يتيح للرجل من الغالبية والجماهير أن يرى من هي أجمل من امرأته، أو أشهى إلى نفسه منها، فيطمح البصر، حتى لو كانت زوجته في الواقع ونفس الأمر أجمل، لكن كما قيل: ((لكل جديد لذَّة))، ولو من باب ((غير طعم فمك ولو بضفعة)).

كما أن المرأة في ظل التسييب والانفلات لا بُدَّ أن تجد من هو أعجب إلى نفسها من زوجها؛ جمالا، أو فتوة، أو ثراء، أو جاها ووجاهة، أو بشاشًا، فَلِكُلِّ مِيزةٍ من هذه عاشقاتٌ مغرماتٌ بها أشد الغرام، لا تملك نفسها أمام الإغراء بها، فتصير أسيرة؛ لكن بلا مَنٍّ ولا فداءٍ، ولو لم يبد أحدهما نحو الآخر ميلا أو إعجابا، وكتمت كتمان عريب المأمونية، قال إبراهيم لما أنشدها:

مــاذا بقلــبي مــن ألــيم الخفــقِ   إذا رأيـــــتُ لمعـــــان الـــــبرقِ

مـــن قِبَـــلِ الأردنّ أو دمشـــقِ   لأنَّ مَـــن أهـــوى بـــذاك الأفـــقِ

فقيل لها: بربك من هو وعلى من هذا كله ؟

قالت: على الوطن.

فقال إبراهيم: هيهات، ليس هذا كله على الوطن.

فقالت: ويلك، أظننت أنك تستفزني (أي تعلم عليَّ من هذا) ؟ والله لقد نظرت نظرة مريبة في مجلسي ذات مرة، فادَّعَاهَا أكثر من ثلاثين رئيسًا[1]، والله ما علم ولن يعلم أحد لمن هي أبدًا.

قال إبراهيم بن محمد اليزيدي: كنت مع المأمون في بلاد الروم فبينا أنا في ليلة شاتية مظلمة ذات غيم وريح، وإلى جانبي قبة، فبرقت برقة، وفي القبة عريب المأمونية، فقالت: إبراهيم بن محمد اليزيدي ؟ قلت: لبيك. قالت: قل في هذا البرق أبياتًا ملاحًا لأغني فيها، فقال ما سبق وإليهما بيتان.[2]

قال: فتنفست نَفَسًا ظننت أنه قطع حيازيمها، فقلت: ويحك، على من هذا كله، فضحكت، فقالت: على الوطن...إلخ ما سبق.

---

[1] قصة عريب في كتاب الأغاني ٢٠/ ٣٨٢ .

[2] البيتين هما :

فارقتـــه وهـــو أعـــز الخلـــق   علـــى والـــزور خـــلاف الحـــق
ذاك الـــذي يملـــك مـــنى رقـــى   ولســـت أبغـــى مـــا حييـــت عتقـــى

وقال شاعر لفضل[١] جارية المتوكل العباسي:

ومستفتحٍ باب البلاءِ بنظرةٍ   تزوَّد منها قلبُهُ حسرةَ الدَّهْرِ

فقالت مسرعة:

فوالله ما يَدْري أتدْري بما جَنَتْ   عَلَى قلبه أمْ أهْلَكَتْهُ ومَا تَدْرِي[٢]

وكانت فضل هذه في الذروة من قسامة الوجه، وحلاوة الطبع، وحسن البديهة، وظرف الحديث، لا يفوقها إلا عريب في ما رأى.

---

[١] كانت فضل جراية من مولدات البصرة، بها ولدت ونشأت في دار رجل من عبد القيس، وباعها بعد أن أدبها وخرجها فاشتريت وأهديت إلى المتوكل . ثم عرفت بعد أن أعتقت بفضل العبدية وكانت حسنة الوجه والجسم والقوام ، أديبة فصيحة سريعة البديهة، مطبوعة في قول الشعر، وأشعر نساء أهل زمانها، وكانت تجلس للرجال ويجيبها الشعراء . ينظر في أخبارها وشعرها . الأغاني ١٩/ ١٩٩ .

[٢] الأغاني ٢٠٢/٩ .

مضار النظر على الفرد والأسرة

ويا لله ما أجل قول نبي الرحمة: ((الأولى لك يا علي، والأخرى عليك))[1]، فعُدَّ ما سلف عن الجاريتين شرحاً لهذه الكلمة الطيبة، والحكمة العظيمة، فإن النظرة من الرجل تنشئ في قلبه الميل إلى من أُعْجِبَ بها، أو أعجبت هي به، حتى يتحول إلى حب، ثم إلى طول تفكير، ثم إلى.. ثم إلى...إلى آخر المطاف، كما قيل: ((نظرة، فابتسامة، فسلام، فكلام، فموعد، فلقاء))، أو كما قيل:

قفْ واسْتَمعْ سيرةِ الصَبِّ الذي قتلوا ... ومات في حبِّهم لم يبلُغِ الغَرضَا
رأى فحبَّ فرَامَ الوَصْلَ فَامْتَنَعُوا ... فرَامَ صَبرًا فأعْيَى نَيْلُهُ فَقَضَى

وأثناء ذلك لا بُدَّ أن ينمو الفتور، وتخمد جذوة الحبور بينه وبين زوجته، ويسود الكساد، وتسوء الحياة تدريجيًا، ولولا تلك النظرة، أو ذلك الاختلاط، ما طرأ على ذات البين كساد ولا خراب وفساد، وفي هذا إهدار لسعادة الزوجين أي إهدار، وإجهاز على حقوق الزوجة المسكينة بسيف نظرة بتَّار، وفتح لباب الشقاء النفسي لهما، الذي قد يسحب أذيال بؤسه وشؤمه فيما بعد على الأولاد، فَمُعْظَم النَّار من مُسْتَصْغر الشرر.

---

[1] سبق تخريجه .

وقد قلت آنفًا: إن المتحلين بالعفاف الصارم، والمروءة، والحياء الزاجر، هم الأقلون عددا دائما، وبناء عليه فقد يكون في غفلة هذه الزوجة – ضحية إعجاب زوجها بغيرها –، قد يكون بين زوجها وبين التي أُعجب بها ما تفضل معه الموت متى عَلِمَت، كما قد يكون في غفلة زوج هذه المعشوقة مع عشيقها ما يجعل حياته جحيمًا متى علم، ولكن الزوج دائمًا يكون آخر من يعلم، وربما فارق الدنيا و لم يعلم، وربما آلَ الحال حين يعلم إلى قتل أو انتحار أو تسريح لا بإحسان، والمآسي من هذا القبيل وذاك في مشارق الأرض ومغاربها، لا يحيط بها حصر ولا وصف، فإن لم يكن قتل أو انتحار فحياة شغب وشَكٍّ وشقاق وكدر وشقاء لا يرضى بها الإسلام لمؤمن ولا لكافر ولا لمؤمنة ولا لكافرة.

ولهذا أقام الإسلام الحواجز المنيعة دون وقوع ذلك، ودون حصول ما يؤدي إليه، واختار للبشرية ما يضمن سعادة الجنسين معا، ويحقق قناعة كل بما عنده، وما معه، وفي القناعة طيب الحياة بدلا من أن تشرئب نفوس وتطمح عيون إلى ما عند الآخرين.

وحتما، لا بُدَّ أن ترى المرأة من يثيرون غريزتها إن رأتهم، وتثيرهم إن رأوها، ففي ذلك من البؤس والشقاء والفساد الخاص والعام ما يمهد له الاختلاط، ويُعبِّد الطرق إليه، ويسهل به التلصص والختل والخيانة للجنسين على الجنسين، ويبعث على الاندفاع في إشباع النزوات، وإرضاء

الشهوات، التي تنتهي دائما بالويل والثبور، ولكن كما يقال: ((بعد خراب البصرة))، ولو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، وفي هذه النهاية يقول أبو نواس[1] — ولله درُّه —:

ولقد نهزتُ مـع الغـواةِ بِـدَلْوِهم وأَسَمْتُ سرح اللهو حيثُ أسَامُوا

وبلغتُ مـا بلـغَ امـرؤٌ بشـبابهِ فَـإذا عصـارةُ كـلِّ ذَاك أثـامُ

كذلك لما كان الرجل أمضى إرادة، وأقوى نفوذا، إلا ما شذ، فإن الإسلام ركز اهتمامه بالمرأة أكثر من الرجل، واهتم بحماية مصالحها المالية من أطماع الجشعين، وحيل المحتالين، كما اهتم بحماية كرامتها وجسدها من عبث المفسدين، فجعل أغلب تصرفاتها في أملاكها لا تنفذ إلا بعد الموت، وذلك ليتيح لها تدارك ما ربما تقع فيه من غَبْنٍ باسم بيع أو وصية

[1] هو أبو علي الحسن بن هاني بن عبد الأول بن الصباح الحكمي الدمشقي وأمه كانت من الأهواز، ولد في باستان ماتارد من كورة خورستان سنة ١٤١هـ في عهد أبي جعفر المنصور، عرفه والبة بن الحباب ، فتوسم فيه الذكاء والفطنة وتوقد الذهن، فصحبه أبو نواس إلى الكوفة ثم إلى بغداد وهناك صحب الشعراء ودرس على العلماء حتى أصبح من أشعر أهل عصره وأغزرهم علما. ولقب بأبي نواس ؛ لأن خلفا الأحمر أحد عمال اليمن استدعاه يوما وكان يوده أكثر من غيره من الشعراء وقال له أنت من اليمن فتكن بأسماء الذوين (أي المصدرة أسماؤهم بـ ذو) فاختار ذا نواس واشتهر بهذه الكنية. توفي في الثامنة والخمسين من عمره سنة ١٩٩هـ . ينظر ديوان أبي نواس صـ ٢ .

أو هبة أو نحوها، ولم يتركها فريسة لأطماع الأقارب والمحتالين، كما حماها أيضا من أن تتصيد امرأةٌ زوجَها، وتخطفه عليها، فتطيح بسعادها، وتحولها إلى شقاء وعناء، وذلك بما أشرنا إليه آنفا من نظام الحيلولة بين زوجها وبين غيرها من الجميلات.

ومن المعلوم أن الكوارث الناتجة عن مخالفة نظام الإسلام في هذا المجال تَعُجُّ بها مجتمعات البشر، وتزخر في جميع أقطار العالم في كل ليلة ويوم تقريبًا، وتنشر صحف العالم كل صباح ومساء من هذا الطراز ما لا يُعَدُّ ولا يحصى، على أن ما تذكره ليس إلا حرف من ألف، وذلك نتيجة حتمية للاختلاط المهيج للغرائز، وتسييب المرأة لنفسها، كما تَسيَّبُ الحيوانات، وغالبهُ يقع عن حسن ظن وسوء اختيار وتعاون بين الغرور بتشجيع الشياطين الذين خدعوها بقولهم: حسناء – والغواني يغرهن الثناء – وبين النفس الأمارة والمغرية بمؤاثرة العاجل ومواقعته.

أثر تطبيق الإسلام في هذه القضية

ولو فرضنا أن العالم طبق نظام الإسلام في هذا الجانب الهامّ الحيوي، لاختفى من المآسي الأليمة تسعة أعشارها، ولو طُبق الإسلام في مجتمع كاملا، إلا هذا الجانب، فإن صلاح ما طبق منه لا يمنع فساد ما انتهك منه، فالإسلام كجسم الإنسان، لا يقال للرأس وحده إنسان، ولليد إنسان، إنما الإنسان مجموع الأعضاء، فإذا اشتكى بعضه تداعت بقيته

بالسهر والحمى. ولهذا قلنا: الإسلام كلٌّ وليس كليًّا، بل لو أهمل المجتمع جُزَيْئًا واحدًا من أجزاء الإسلام الخاصة برعاية حقوق المرأة، وحمايتها من كل ظلم (ومرمطة)، واستغلال لسذاجتها، فإن ما حافظ المجتمع عليه من حقوقها لا يقيه من فساد إضاعته لذلك الجزيء.

مثلا؛ لو حافظ على كل مصالحها، وحمى سعادها وكرامتها كما يجب، لكنه أهمل مسألة المغالاة في تكاليف الزواج فقط، فأطلق العنان للمغالاة في المهور، والشروط، والحلية، والكسوة، والولائم، فإن هذا الإهمال الجزئي سيجر من الويلات ما يَصُمُّ السميع، ويُعمي البصير، ويُسأل من مثله العافية، سيجره على الفتيان والفتيات والأسر، ويغلق نوافذ الأسعاد، ويفتح أبواب الفساد أمام الجنسين على السواء، حتى للمحصنين والمحصنات، والذي لولاه ما زلت بهم ولا بهن ولا بغيرهم قدم.

فقد يدفع الشابَ العجزُ عن التكاليف إلى الإقدام على الإجرام بالسطو على المال، أو المحاولات الأثيمة، والمعاكسة، وربما لمحصنات عفائف لم يفكرن في الجريمة قط، لا سيما ممن سيماهم الجرأة والوقاحة من الشباب، وهم كثير، فلا يزال بها، ولا تزال تفكر فيه، والشيطان يزينه في نفسها، حتى يفت في عضد امتناعها، وتلين عريكتها، حتى تقع أخيرا في حبالة الإعجاب به، والرغبة، وتخور قوى المقاومة والمصابرة والمرابطة، فتستجيب، وتخر على وجهها في هاوية الانقياد والسقوط إلى الدرك

الأسفل، ونهاية الحياة معه، ثم مع غيره. ربما جرَّأت هذه الفريسة أمثالا لها في العفاف، من باب: ((واقتلوا مالكا معي))[(١)].

هذا في المتزوجة العفيفة، فكيف بالأشرات البطرات؟! فكيف بالتي أغلقت الغريزة أمامها كل تفكير إلا في الزوج والحنين إليه؟! وأقامت المغالاة في وجهها وأمامها شبه اليأس، فإنها ستدفع بالفتاة إلى ما دفعت إليه الفتى، لا سيما إذا صادفت ذا قحة وجرأة، خالي الوفاض، بادي الإنفاض من المروءة والحياء، وهؤلاء جمهور كبير بين الشباب.

ومتى سفت الفتاة أو الفتى الكأس الأولى، كانت كجرثومة الوباء، ما أسرع ما تتوالد وتتكاثر وتتعدى الحدود، وتقتحم الحواجز، وتغزو في جهات المجتمع الأربع، ويعدي السليمَ الأجربُ، فتعم البلوى، وما غزي قوم في عقر داراهم إلا ذلوا، واستكانوا، وسلموا بلا قيد أو شرط، هذا معلوم لا يخفى إلا على أشد الناس بلادة، ولا ينكره إلا جهول لا يعبأ به، وإلا خبيث القصد والنية شديد الأنانية والاستهتار والاستهانة بكرامة المرأة ومصالحها غير مبال أن تؤول بها الأحوال إلى ما آلت إليه الحال بالرجل

[(١)] قالها عبد الله ابن الزبير عندما بارز مالك الأشتر في موقعة الجمل، وكان مالك في الثالثة والثمانين من عمره و بن الزبير شابا؛ فغلبه مالك وطرحه أرضا فقال ابن الزبير: ((اقتلوني ومالكا معي)) و لم يكن الناس يعرفون مالكًا بهذا الاسم وإنما بالأشتر؛ فالتبس عليهم واجتمع حولهم الناس و لم يستطع الأشتر قتله، فلما نهض مالك عرف الناس أنه الأشتر ففروا لما علموا من شجاعته وبأسه.

وزوجته في ((كلمة الحجاب))، وبمرغريت في ((عبرات)) المنفلوطي[1] رحمه الله، ومهما تنصل أو تظاهر بغير هذا، فربما ((لحاجة في نفس يعقوب)).

ومن المعلوم والمعقول بلا خلاف فيه بين الفحول أن أنوثة المرأة هي ناموسها السامي، والمعنى الشامخ في الأنفس المترامي، وأنها كما يقال: رأس المال والضمار، فقيمة المرأة كامنة في أنوثتها، وعلى مقدار صونها عن الابتذال تتوهج، وبحسب ترفعها عن التمرغ في الأوحال تتأجج، وبها تعتز كما يعتز الرجل برجولته، لله در القائل في الشعر الحميني معاتبا عزيزة عليه انزعج من سماع ما يمس سمعتها المصونة، فقال من قصيدة بِلُغَةِ صنعاء الدارجة:

قـلْ لـهْ محِبّـك تِقَلَّصْ وانْحَـرفْ ... حِينْ جَاءَتَ اْخْبَارْ مَا هِيْ شَـافِيَهْ
قَـالُوا كُثُـر مـن لـديك المختلَـف ... إلى مَـــواطِنْ وخَيْمَـــهْ وَاطِيـــه
لِمَـهْ لِمَـهْ مَـالْ طَبْعَـكْ واختلَـف ... وَاْنَـا اعْهَـدَكْ أن نَفْسَـك سَـامِيهْ
وَعَـالِيَ الـنفسْ يُورِدْهَـا التَّلَـفْ ... إِنْ لَـمْ تَكُـنْ بالمعَـالِيْ رَاْضِـيَهْ

---

[1] مصطفى لطفي بن محمد لطفي بن محمد حسن لطفي المنفلوطي سياسي وأديب، كاتب، قصصي، ولد بمنفلوط . تعلم بالأزهر ولد سنة ١٢٨٩هـ وتوفي سنة ١٣٤٣ هـ . من آثاره ((النظرات)) و ((العبرات)) وكلمات المنفلوطي وغيرها ينظر معجم المؤلفين ٣/ ٨٧٧ رقم ١٧٠٤١.

وَصَاحِبِ الآمرِ تِلْقَى فِيهِ شَـفّ ... يسـكُنْ مَحَـلّ الخـدمْ والحَاشِـيَهْ
ومِـن تِهَـاوَنْ بِنَفْسِـهْ وَاسـتخفْ ... لا بُـدّ تِمْضِـي عَلَيْـهِ الكَاوِيـهْ
والبَزّ لا قَدْ نُشِرْ فِي السُّوق خَفْ ... سِعْر الجديدْ غيرْ سِعرَ البَالِيهْ
والبحر لا قَدْ تكدَّرْ بالجَيَفْ ... تِكْرَهْ لِقَاهْ النفوس الظاميهْ
والحسْن كالمالْ ينفيهِ السَّرفْ ... ويذهِبهْ ما يِبقي باقْيِهْ

قوله: لا قَدْ، بمعنى إذا لغة عرفية.

وهذا بعض القصيدة وهي بلغة ولهجة صنعاء الدارجة، ولذا ضبطتها بما يخالف الفصحى، ويطابق العامية، لأن الإعراب في اللغة العامية يفسد جمالها ونغمتها المأنوسه المحبوبة عند أهلها، وقد نبَّه الجاحظ[1] على مثل هذا في كتابه ((البيان والتبيين)) بكلام سديد، مفاده أن الواجب الحكاية للغة القوم الملحونة كما هي.

ومن الجدير أن أضع بين يدي القارئ الكريم نظرية الفيلسوف الإسلامي العظيم الخالد أبي العلاء[2]، ورأيه، ونصيحته في الموضوع، قال

---

[1] العلامة المتبحر ، ذو الفنون، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري المعتزلي ، صاحب التصانيف . أخذ عن النظام. مات سنة خمسين ومائتين أو سنة خمس وخمسين ومائتين ينظر سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٢٦ رقم ١٤٩ .

[2] هو الشيخ العلامة، شيخ الآداب ، أبو العلاء ، أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان ، المعري ، الأعمى، اللغوي الشاعر صاحب التصانيف السائرة، والمهتم في نحلته. أضر بالجدري وله أربع سنين ولد في سنة ثلاث وستين وثلاث مائة . ينظر سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٤ رقم ١٦ .

من قصيدة طويلة يدعو إلى التماسك ويحذر من التهالك على الدنيا وزينتها ما يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: ٢٨]. قال في اللزوميات[1]:

ذرْهـا، وتلـك نصـيحةٌ معروفـةٌ	عظُمَـت منافعُهَـا وقَـلَّ وُعَاتُهَـا
لا تَتْــبَعَنْ للغانيـــات مَمَاشــيًا	إنَّ الغـــواني جمـــةٌ تَبعَاتُهَـــا
وإذا اطَّلَعْـنَ مـن المنـاظرِ فالْهُـدَى	أَنْ لاَ تَـرَاك الـدَّهْرَ مُطَّلَعَاتُهَـا

وهذا إشارة إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ ﴾ [النور: ٣٠ – ٣١]، وقد فُسِّرَت الزينة بالكحل في العين الظاهرة من تحت البرقع، وبخضاب الكف، لضرورة المرأة لما تزاوله من العمل كالبيع والشراء، وأي أخذ وعطاء لرفع المشقة. ثم قال:

---

[1] ينظر ((لزوم ما لا يلزم اللزوميات)) من قصيدة دنيا الحزن والزوال ١ / ٢٠٨- ٢٠٩ .

واحـذرْ مقـالَ النـاسِ أَنَّـكَ بَيْنَهَـا   سَرْحَانُ ضأنٍ حينَ غـابَ رُعَاتُهَـا

ثم نبَّه إلى أن لنغمة الأصوات تأثيرا عظيما يستحيل إنكاره، فقال :

ودَعِ القـراءة إنْ ظَنَنْـتَ جَهيْرَهَـا   ذَكَـرَتْ بِـهِ الحاجـاتِ مستمعاتُهَا

فالصَّـوْتُ هَـدْرُ الفحـلِ يـؤنسُ   أُلاَّفَـهُ فتجيـبُ مُمْتَنِعَاتُهَـا

كذلك نهى الله نساء رسوله أن يخضعن بالقول، فيطمع الذي في قلبه مرض ، وهن أطهر النساء عن الخناء في أطهر مجتمع، فما بالكم بالخطائين والخطاءات أفلا تعقلون.

وبعد دقته في هذه الملاحظة، يشتد في التحذير بوصاته، فيقول مؤاثرا للنوق على حسان الموق :

أولى مِـن البيـضِ الأوانـسِ بـالعلا   قُلُـصٌ تَجُـوبُ الليـلَ مـدَّرِعَاتُهَا

ثم يهيب بنا منذرًا ومحذرًا من مغبة الاستنامة إلى الدنيا فيقول :

أوَ مَـا تفيـقُ مِـنَ الغَـرَامِ بِفَـارِكٍ   مشـهورةٌ مـع غيرنـا وَقَعَاتُهَـا

ثم يستخدم التعليل القياسي الأصولي بالطرد والعكس للإقناع؛ لأنه حيثما وجد الطمع، وجد الذل، ولزمه، وحيثما انتفى ووجدت القناعة، انتفى الذل، ووجد العز، فقال :

وهـي النفـوس إذا تُمَيِّـزُ بَيْنَهـا   فَأَعَزُّهَـا في العَـيْشِ مُقْتَنِعَاتُهَـا

وَمَـتى طَـردْتَ أمورَهـا بقياسـها   فَأَحَقُّهَـا بمذلَّـةٍ طَمِعَاتُهَـا

وَكَـأنَّ آمـالَ الفَتَـى وَحُتُوفَـهُ   فِئَتَـانِ تَهْـزَأُ منـه مُصطَرِعَاتُهَا

أوقـاتُ عاجلـةٍ كـأنَّ مُضِـيَّها   وَمْـضُ البُـرُوقِ خَوَاطفًا لَمَعَاتُهَا

فَمَتَـى يُنَبَّـهُ مِـنْ رُقَـادٍ مُهلِـكٍ ... مَـن قَـدْ أضَـرَّ بعينِـهِ هَجَعَاتُهَـا
مَـنْ يَغْتَـبِطْ بِمَعِيْشَـةٍ فَأَمَامُـهُ ... نُـوبٌ تُطيـلُ عنـاءه فَجَعَاتُهَـا
دُنْيَـاكَ مشـبهةُ السَّـرابِ فَـلاَ تـزلْ ... بِـرَزِينِ حلمِـك موشـكًا خـدعاتها

والقصيدة عصماء، وقد صرف كلمة خواطف للسلاسة، وهو وجه في العربية وجيه، جاء في القرآن الحكيم، ولا بأس بما استطردته خارجًا عن الموضوع لضرورة استكمال الصورة عند الحكيم المعري، والحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها التقطها.

ومن الملموس بإجماع أن أنوثة المرأة الغربية، ومقلداتها المترجِّلات قد تلاشت في نفوس الرجال، حتى أصبحت أنوثتها شبه مبتذلة، بحيث لا ينفعل بها الناظرون إليها انفعالا يرضي غرورها، ولا يحس جليسها بفارق بينها وبين جليس من الرجال، كما أن الطموحات نحوها أيضا فترت، وفي المثل العامي الصنعاني: ((ما كُثُرْ بُثُرْ))، فلا يؤبه لها إلا عند هياج الغرائز كسائر الحيوانات.

وحاشا الإسلام وأهله أن يرضوا بحرمان المرأة من المكانة اللائقة بها، وما أظن أن امرأة ترضى بهذا لنفسها، بينما المصونات بالاحتشام والابتعاد لا تنفك قلوب الرجال تَوَّاقَةً إليها، عامرةً بالإعجاب بأنوثتها والميول إليها، حتى لو كان الناظر والذاكر لها ممن لم يبق له فيهن أرب، وحتى لو علموا أنه لا نصيب للمصونات في الحسن ولسن من ربات الجمال

والحجال، وحتى لو كان العهد بذاك قريبا، فإن الأنظار لا تلحظها إلا بحب وتقدير وميول، مكنونات على الدوام في الصدور، ظاهرة أو مستترة.

ومما تجب ملاحظته أن أغلب المتخرجين من الجامعة بمصر عن علم عندي في حينه وغيرها ظنا قياسيا يعدلون عمَّا عاهدوا عليه زميلاتهم في الجامعة، وذلك بعد التخرج، فيتزوجون ريفيات أميات، ويبقى أغلب المتخرجات عوانس، اللهم إلا من تعبت سعيا في الحصول على زوج، فتزوجت ممن هو دونها في المستوى، وأعانته، وشجعته على الاقتران بها.

واللاتي هذا حظهن، وكذلك التي تفشل مساعيها، يعشن في كبت وحقد وشعور بالحرمان مما يصبون إليه، منغصات للحياةِ إلى نهايتها، يتجلدن بإخفائه. فما هو الدافع إذن للخريجين لأن يتزوجوا ريفيات يتحملون معهن عبء الحياة كاملا، ويَدَعُون خريجات الجامعة، وهن سيحملن عنهم نصف عبء الحياة؟

أظن أن معظم السبب أن أنوثتهن قد انطفأت جذوتها في القلوب، بينما أنوثة القروية لا تزال متأججة، وفي أوج تأثيرها في النفوس، ولهذا لا شك أن التشجيع على الاختلاط غلطة في حقهن فاحشة، أو خديعة باسم نصيحة، قصد بها بعضهم تعبيد الطرق إلى ما تشتهي الأنفس وتلذ

الأعين...إلخ، والصيد في الماء العكر، وإن كان كثير لا يفطن لهذا ولا يقصده.

ولقد كنت عضو مؤتمر بالقاهرة سنة ١٣٧٤ هـ، ضم نحو أربع مئة عضو ومستمع، منهم أستاذتان كانت الأنظار إلى إحداهما طامحة، حتى جاءت قريبة لهيلاسلاسي رئيسة لوفد الحبشة، فاقتصر طموح الأبصار عليها، فقال أحدهم لي: ما رأيك، وأشار إلى الأستاذتين — أراد في التبرج — وكانتا أمامنا، فقلت بهمس: لقد أحسن التبرج إلى هذه بقدر ما أساء إلى تلك، وتُنُوقِلَتِ الكلمة بضحك واستظراف وتطلع إلي، فأدركت حرجًا رجوت معه أن لا تتعدى الكلمة ذلك المحيط.

وترددت، وأقمت بمصر سنين كانت الصحف تنشر مآسي فظيعة من جرَّاء الاختلاط، كتخبيب لزوجات، واختطاف، وتزوج امرأة بأكثر من زوج جمعا، ونحوها، مثلا: أظهرت صورة شاب وجامعيتين شكت إحداهما أنه اختلس ذهبها، وسلب شرفها الذي تحتفظ به الفتاة لزوجها، وتبرهن به على عفافها وشرفها، بوعد منه أن سيتزوجها.

وكشف التحقيق أنه قد سلب بهذه العدة هذا الشرف من ثمانية عشر طالبة جامعية باعترافهن، وأفسد بعض المحصنات بالإغراء.

ورأيت في صحيفة بعمّان ذات مرة أن شابا طوق فتاة من الخلف كانت تمشي أمامه مقابل غرفتي في الفندق، سنّه دون العشرين، وذكر

التحقيق معه اعتذاره بأنه انفعل بها، فلم يستطع السيطرة على أعصابه، حتى حجز الناس بينهما.

ورأيت في أخرى بمصر أن رجلاً قَبَّلَ ثَغْرَ امرأة قسرًا في الطريق، واعترف معتذرًا بأنه لم يستطع مقاومة إغراء شفتيها.

ولقد أجاد الشاعر القارة[1] رحمه الله في قوله من قصيدة بديعة باللغة الدارجة في مجتمعه اليمني:

هَا وَالسبَبْ دينَ الإسلامْ فيهْ وَقَعْ   وملة الكفر قامت ما بقي إسلام

لا شك أن الإسلام بما شرع من نظامه، ومن التشجيع على الزواج المبكر، قد منع وقوع مثل هذه الظواهر التي ينزلق الأغلب منها إلى أسفل السلم، وأقام بذلك حواجز دون قيام العصابات، والاغتصاب، والاختطاف، ونحو ذلك مما يكدر صفو الحياة ويزعج المجتمعات بأكملها.

لقد أعلن رئيس الولايات المتحدة قريبًا أنه سيدفع مبلغا كبيرا مُغريًا من المال جائزة لفتاة توجد بكرا وهي في عمر خمس عشرة سنة، وقد مضت فترة من الزمن لم تتقدم لهذا الجعل المغري أية أمريكية، وسبحان القائل:

---

[1] أحمد بن حسين شرف الدين الشهير بالقارة ، ينتهي نسبه إلى السيد أحمد بن المطهر بن الإمام يحي شرف الدين الكوكباني . وإليه تنتسب قارة أحمد بالبلاد الكوكبانية ، عالم فاضل، شاعر، بليغ، أديب، ساخر، اشتهر شعره بقسمية الحميني والحكمي ، كانت وفاته سنة ١٢٩٥ م في طريق مكة وهو يقصد الحج . ينظر أعلام المؤلفين الزيدية ٩٨ رقم ٦٩ . والبيت من المقامة الشاهانية. ينظر الطرائف المختارة من شعر الخفنجي والقارة صـ ١٦٧ .

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وهل الحل إلا كما قيل:

ألقـاهُ في المـاءِ مَكْتُوفًـا قـال لـه   إيـــاك إيـــاك أن تبتـــلَّ بالمـــاءِ

ورغم ذكاء الجنس اللطيف، إلا أهن لم يتيقظن؛ لأن المتفوقات منهن بالحسن الخلاب للألباب هن العدد الضئيل، فكيف فضلت الأكثرية السفور، وهو بمقدار ما يرفع من شأن الحسناوات، يحط من شأهن، ويقلل من الميل إليهن، بمقدار ما يزيد من الشغف بتلك الفواتن بحق وحقيق، أما الفائقات حسنا وجمالا فيسوغ رغوهن في السفور والظهور ولعهن بالمباهاة والتيه على من دوهن حسنا، والافتخار بما أوتين من جمال أخاذ وحسن خلاب، فكيف ارتضت السفور الدنياوات جمالا، وهو يسرق رصيدهن في قلوب الفحول الذي نماه الحجاب، ورضين أن تضيفه الفائقات حسنا إلى ثروهن الكبرى، فلا يلتفت بعد إليهن طرف ولا قلب إلا في غيبة النجوم، ولا تعتبر الدنيا إلا كعجلة (الاستبني) الملفقة، لا تستخدم إلا للضرورة، كما قيل: ((وفي عدم الماء التيمم جائز)).

لقد كان الأولى أن ينصرن من نصرهن، وهو القرآن، وأن يخذلن من خذلهن، وهو الشيطان؛ لأن من جبلة المرأة شدة اهتمامها بما يرفع شأها عند الآخرين، وتتضايق إذا شعرت أها في أنظارهم واعتبارهم في

الصفوف الخلفية جاذبية وحسنًا، وتكاد لا تعتبر لنفسها وجودًا إلا في نظر الآخرين، ثم كأنه لا وجود لها بعد ذلك.

قد نحتمل للملحدة بأنها تقول: ما هي إلا حياتنا الدنيا، فعلام نحتمل المؤمنة بالبعث والنعيم والجحيم.

زارني ذات ليلة إلى منزلي بعد العشاء جماعة من التلفزيون والعلماء لتسجيل ندوة – قالوا: لتشجع المرأة على المشاركة في الأعمال وترك الاعتزال – ودار الحديث، وانتهت الندوة، ولم تذع، وفهمت في حينها عدم ارتياح المسؤول عنها.

وبعد أيام جاءني من الإعلام شاب نبيه، واقترح المقيل عندي، فتحمس في نقده لي، وأنهم ما جمعوهم عندي إلا لأني قد عرفت الخارج، ورأيت ما الناس والمرأة عليه؛ لأشجعهم، فيتشجع الناس بالندوة، فقلت: أرجو أن تنبهني على أخطائي لأصلحها، ولك الشكر، ولكن على أساس الاستعداد منا جميعا على الصراحة الهادفة إلى تحري الأصلح والأصوب، ومن وجهتي سأدع النصوص الشرعية جانبًا لا أذكر منها شيئا، وأن نُقسم معا على الصدق في الإجابة والإنصاف وعدم الالتواء للمغالطة ونحوه، فانشرح وقال: أنصفت. فمما قال:

لقد رأيت بنفسك سعادة المرأة في الخارج، وسعادة الناس بما هم عليه، ورأيت حرمان المجتمع اليمني مما سعد به الناس في الخارج.. إلخ.

فقلت: نعم، عرفت، وراق لي ما راق لك، وتاقت نفسي توقانا شديدا، ورأيت الناس يعدونها نصف المجتمع، لكن في القول فقط، أما قولك: هي وهم سعداء. ففيه نقاش يأتي فيما بعد إن شاء الله.

ولولا أن النبي ﷺ عد المرأة نصف الدنيا في حديث: ((فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء)) إعظاما لخطرها، لظننتها تسعة أعشار الحياة، وجميع المتاع سواها في عُشر، فهي بذلك عدل الدنيا الأكبر والأكثر، وهي مع هذا معظم الحوافز والدوافع إلى نجاح الرجل في دنياه وأخراه، والخير والشر والفشل، وهن صواحب الفضل الأعظم على الرجل، وعلى نفسها، وهن كما تقول بنت الشاطئ[1] مصانع الرجال أيضا.

قلت: والآن؛ جاء دوري أن أسألك، فأين عملك الأساسي ؟

فقال: في مصنع كذا.

وبعد أن وصف العمل والعمال، قلت: بشرفك – وهو قسمه الذي يردده – هل نازعتك نفسك إلى زميلة في العمل ؟ وهل وجدت أشهى

---

[1] هي الدكتورة عائشة عبد الرحمن، كاتبة ومؤلفة مشهورة في مصر، جمعت بين التعليم الحديث في المستويات الجامعية ، والعلم الذي درجت عليه في بيت نشأتها ولها كتاب ((موسوعة آل النبي)) ويضم أم النبي وبناته ونسائه وزينب بطلة كربلاء ، وسكينة بنت الحسين .

وأجمل ؟ وهل ؟ وهل ؟ نحو أربعة أو خمسة أسئلة، تَبَسَّمَ لأولها، وسكت مليًّا، ثم قال: نعم.. إلى نهايتها. وهي إجابات موفقة، مبرأة.

فقلت: تأكد أن زوجتك متى عملت مع زملاء، فلا بُدَّ أن تجد من تفضله في قرارة نفسها عليك، ولو في ناحية واحدة قرب ذلك أو بعد، فإن لم تصادفه في العمل، ففي المتجر، أو الشارع، أو أي مكان يمكنها من الوقفة أو الكلام معه، ((والنساء شقائق الرجال))، وما عند هذا يكون عند تلك، واسترسلنا في تجاذب الحديث، حتى قلت له:

إن لي في هذا البيت بضعة عشر عامًا قرير العين كسائر أهل الحارة، لم يطر على فكري جديد، ولا أشك في أنه لو كان الحجاب مرفوعا، فرأيت من سترهن في الحارة، لكان قد تبلبل بالي وتغير مرارًا حالي، ولو أنك مكثت على مثل وضعي – كذلك غيرك – ما تبلبل بال ولا تغير أو تكدر حال، وإننا لو حَبَّذْنَا ما ترونه صلاحا لشاركنا رجالكم ونساءكم في إثم ومسؤولية ما يترتب عليه من أكدار وانحرافات ومآسي تزعج الكثير وتشقي الجمع الغفير؛ ومن ذا الذي يرضى أن تعود زوجته في يوم من الأيام إلى البيت وقد شغل فكرها استظراف فلان، أو جمال فلان، أو فتوة فلان ؟ فأطرق مليًّا.

فقلت: كلانا أقسم على الصدق والصراحة.

فقال: لا يرضى أحد أن تعود زوجته وقد شغل بالها بالإعجاب بغيره.

فقلت: فقولي إذن هو لما فيه صلاح نسائكم ورجالكم، وسعيكم هو من حيث لا تشعرون لما يكدر صفو حياتكم رجالا ونساء، فإن كل زوجة في المجتمع لو توهمت مجرد توهم أن زوجها قد أعجب بغيرها لتحولت بركانا من الغيرة، ونار تحرق الأخضر واليابس من سعادة الأسرة، ولارتسمت هذه المصيبة في قلبها مدى الحياة، فلا تسمع لحديثك بعد ذلك إلا من خلالها، ولا تحدثك إلا عبرها، ولا يدور بينكما نقد أو اعتراض إلا عبر هذا التصور الذي لن تستطيع تخليصها منه، ولا تستطيع هي تخليصك منه – إن كان الأمر بالعكس – مهما حاولتما ذلك، فإن ما ادعيته من سعادة الناس في الخارج بما هم فيه مجرد خيال تتصورونه.

ثم إن كان من هدفكم أن تشارك المرأة الرجل في العمل، فلو تأملتم لوجدتم المرأة في اليمن تعمل أكثر من الرجل في الريف والمدن، لكن بلا إغراء أو توسل به لأمر آخر، ولا سيما في الريف، حتى في الحقول، وحمل الثقيل، وجمع الحطب، وفي سائر مرافق الحياة تعمل ضعف الرجل، فكيف تغافلتم ؟ وأين تذهبون ؟ ثم أين تذهبون ؟

انتهى خلاصة الحديث مع الشاب طيلة المقيل، وبدلا من أن يصيدنا صدناه.

طلب شاب من رسول الله ﷺ أن يأذن له بالزنا، فقال ﷺ وسلم للشاب: ((ألك أم)) ؟ فقال: نعم. فقال: ((أترضى أن يزني الناس

بأمك))؟ فقال: لا. فقال: ((كذلك الناس لا يرضون أن تزني بأمهاهم. ألك أخت))؟ قال: نعم. قال: ((أترضى أن يزني الناس بها))؟ قال: لا. قال: ((كذلك الناس لا يرضون أن تزني بأخواهم. ألك كذا ؟ ألك بنت عم ؟)). فما زال يقول لا، ثم أقسم من تلقاء نفسه أن لا يزني أبدا، ولهذا قال النبي ﷺ: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه)).[1] أما إنه لا يسر أحدا أن يفتش مخبوءات زوجته، فيجد رسالة منها أو إليها، أو تجد الزوجة رسالة من زوجها أو إليه، وفيها :

قالت وقد فتشتُ عنها كلَّ مَن لاقيتُه من حاضرٍ أو بادِي
أنا في فؤادك فارمِ طرفَكَ نحوه تَرَني فقلتُ لها: وأين فؤادي؟

والحديث الشريف أفتانا أنه يجب على المواطن الصالح والمواطنة الصالحة أن يكرها لغيرهما ما يكرهان لنفسيهما، وإلا فهناك أنانية يجب على المجتمع أن يطهر نفسه منها، وهي الأنانية التي تفسد الحياة وتحول الإنسان إلى سبع وختال ماكر همه عبادة النفس، قيل من قصيدة عنوانها الشهارية:

فَمُذْ تَكَشَّفت الدُّنيا إذا هِيَ آ فَاتٌ وذَنبٌ وأَهْوَالٌ وزنبورُ[2]

---

[1] أخرجه الترمذي ٥٧٤/٤ رقم ٢٥١٥ قال حديث صحيح والبخاري ١/ ١٤ رقم ١٣ . ومسلم ١/ ٦٧ رقم ٤٥ . وأحمد بن حنبل ٤/ ٣٥١ رقم ١٢٨٠١

(٢) حشرة ضارة لسعتها أليمة.

والناسُ فيهم كثيرٌ لا أُنَاس وما فيهم مِن النَّاس إلا الشَّكْل والصورُ
تَصنُّعٌ وخِداعٌ خَالبٌ وهمو على الدنِيَّةِ وَالدنيا مغاويرُ

ومنها في الذين يعيثون في الأرض فسادا، ممتطين صهوة الجهل المركب، أو صهوة الجهل البسيط:

والجهلُ فرَّق باسم العِلمِ أُمَّتَنا القابُ كل من التجهيلِ تنويرُ
يمشي العرنجل جل المدَّعين هدى لِكُل عَوجاء ترويجٌ وتبريرُ
والكلُّ يدمغ كلاًّ بِالشُّذُوذِ وكَم مَارى ونَادى أنا بالحق جمهورُ
وَحيُ الشَّيَاطِين والأهواء مُتَّبَعٌ وَفطرةُ اللهِ والتَّنْزِيلُ مَهْجُورُ
وَكُلٌّ مُنْتَحِلٍ ليلاه نحلتهُ كُلٌّ بِلَيْلاَهُ مجنونٌ ومَسْحُورُ
كُلٌّ بِلَيْلاَهُ مَفتونٌ يُشيدُ بها قَدْ بُحَّ ناقوسُه والبوقُ والصورُ
مَذاهبُ الزِّيغِ أَجنَاسٌ تشعبَ من كُلٍّ هوانٌ وأضغانٌ وتشريرُ
والْجَاهُ والمَال مَضمونٌ لِمَن أَنَّ الضَّلالَ هُدَى وَالحقَّ دَيْجُورُ
والجاهُل الصرفُ إمَّا عبدُ شَهْوتِهِ في سكرة الأَمْنِ والتَّمْكِين
سوق الفسادَيْن والجَهْلَيْنِ مُزدحمٌ والحقُّ والنُّبلُ عفَّتْهُ اليعافيرُ
والغيُّ والجورُ والتضليلُ ضاربةٌ أَطْنَابَهَا وَفَرِيقُ الحقِّ مَكثورُ

أتصور لو أن مجتمعا من مجتمعات الأرض قرر وقنن أن على أي حسناء يصدق عليهم قول المتنبي[1]:

---

[1] البيت من قصيدة ((غريب كصالح في ثمود)) قالها في صباه . ينظر ديوان المتنبي صـ ١٩ .

راميــاتٌ بأســهمٍ ريشُــها الهــد ــبُ تشــقُّ القلــوبَ قبــلَ الجلــودِ

أن تحجب عن الأنظار وجهها، ومواقع الفتنة من محاسنها، وطبق القانون، لاحتجبت كل امرأة فيه، حتى الشوهاء، أو يقنن أن على كل صارخ جمالها أن تظهر جميع محاسنها وتعريها للناظرين لعرتها كل النساء فيه، إذ لا تطيق المرأة الاعتراف بقصورها عن غيرها، وهن يحتكمن إلى القلب، لا إلى العقل، إلا الأقل، والتشريع يراعي الأكثرية، ويقنن لها، ومن أجلها، أتفهمون ؟

على كل، فالقصد بهذا إيضاح شيء من الحكمة الباعثة على حكم الإسلام وتفضيله للحجاب للحفاظ على مصالح المرأة وسعادتها، وإعانة للرجل على الاستقامة، وحيازة للجميع من الشقاء، وحياشة لهم إلى السعادة، مع استعراض أمثلة للماجريات الناتجة عن السفور، وبرهنة على أن الحجاب صلاح وإصلاح، وسعادة وإسعاد، للمرأة والرجل، حالا ومآلا، والاختلاط تكدير للحياة، وفساد وإفساد، في الحال والمآل، للجنسين معا.

وسعادة المرأة أن ترى نفسها محل إعجاب وقبلة أنظار، ومسرتها تجاوز الحد متى استشعرت هذا من كلمة أو نظرة، وهذا ما وفره لها الإسلام في أحكامه ونظامه، وأحاطها بعناية كاملة، كما نبَّه أنها دون الرجل بصيرة وتصبرا، ولهذا يستغرب العقلاء من انخداعها واغترارها بدعوة الاختلاط،

وليس هذا في صالحها، ويعجب من انطلاء تزيينه عليها، مع أن إهداره لسعادتها أوضح من نار على علم، وفيه القضاء على معظم الإعجاب بها؛ الإعجاب الذي قد تصدع في الغرب، والذي فيه تعريض لزوجها أن تفتنه غيرها، وتسرقه عليها بين لحظة وأخرى، وهذا ما أتحف به الاختلاط المرأة الغربية المترجلة، ومن قلدها.

فالزوج في مجتمع الاختلاط عرضة للفتنة بالمرأة الأجنبية، ولو كانت زوجته من الغيد الحسان، وهي في الواقع تغار عليه، وتغار أشد الغيرة لو لحظت منه نظرة طامحة إلى غيرها، بل لو توهمت حصولها مجرد توهم، فكيف الحال إن لم تكن زوجته حسناء، وللزوج عينان تتقدان، لا يتلفتان إلى أي جهة إلا على أجمل منها.

الناهبـــات عقولنـــا وقلوبنـــا الناهبـــات الناهبـــات الناهبـــا[1]

على حد وصف المتنبي وناهيك بوصفه ووصف غيره للقامات والخصور والأرداف والنحور، والسوالف والنهود، فهل يسعدها هذا أو يشقيها ؟

ومهما غالطت نفسها بالشحت والتسول للإعجاب بها فلن تظفر إلا بساخر منها، يظهر لها غير ما يبطن، إما مجاملة، وإما من باب: ((وفي

---

[1] البيت للمتنبي من قصيدة ((أسد فرائسها الأسود)) وهو في الديوان :
أَلْمُنْهِبَـــاتِ عُقُولَنَـــا وَقُلُوبَنَـــا وجَنَـــاتِهِنَّ النّاهِبـــات النّاهِبـــا

عدم الماء التيمم جائز))، وإما لرفض حسناء له زهدت فيه؛ لأنها مشغوفة بمن تسعى هي إليه، أو مغتلم ولا سواها، على حد قول شاعر قديم:

وَلَـمْ أحْمَـدْكَ مـن خـيرٍ ولكـن ... وجـدت العُـدْم شـرًا منـك جـدًا
فَعُـدتُ إليـكِ مُبْتَئِسًـا ذَلـيْلاً ... لأَنِّـي لَـمْ أجِـدْ مِـن ذَاك بـدّا
كـذي جـوعٍ تَحَامى أكلَ مَيْتٍ ... فَلَمَّـا اضْـطَرَّ عَـادَ إلَيْـهِ شـدّا

فنظام الإسلام هو الذي يحفظ للمرأة زوجها، ويخصها به، أما إذا كانت تريد أن تحتفظ هي بزوجها، وتشارك الأخريات في الأزواج والخطاب، فهذه أنانية تستقبحها منها كل امرأة، باستثناء العواهر، كما يستقبح كل رجل أي محاولة لمشاركته في زوجته، باستثناء الديوث.

ولا يحسن لامرأة أن تستحسن من نفسها ما تستقبحه من غيرها، ولن تؤمن حتى ترى لأختها ما ترى لنفسها وتكره لها ما تكره لنفسها.

ولن تطيب الحياة وتعمر الأرض بالسعادة إلا بإغلاق الأبواب المؤدية إلى الفوضى، بتقييد حرية وسعادة كل أحد بحدود حرية وسعادة الآخرين، بحيث لا يطغى حد على حد ولا أحد على أحد.

فالاختلاط، وإن أتاح لها أن ترى أو تجالس من هو أعجب وأحب إليها من زوجها، فذلك يعقبها السخط على حظها في الحياة من عدة أوجه، كما أن احتجاب الحسان عن بصر زوجها يمنحه الرضى بها، والقنوع بما قسم له، ويمنحها الرضى بحظها من الحسن، وإن قلّ، ويحافظ

على شعورها من أن تجرحه المناظرة في نفس زوجها بينها وبين من يشاهد من الحسناوات.

وعلى الجملة، فإن خسران من طاش نظره وطمح بصره من الرجال والنساء في نظام الفساد أضعاف ما يحرص عليه من المتاع فيه، الذي نهايته الندامة الخالدة، ومعايشته مزيج من أنواع الشقاء من غيرة وتُهم وخفر ذمم وحسد وأحقاد، وما من لذة فيه – وهي طبعا سريعة الزوال – إلا مشوبة بغصص، وكأننا بالدنيا وما فيها لم تكن، وكأننا بالآخرة وما فيها لا تزال، وكل لذة ستفنى، ويبقى وزرها، وعلى العكس العيش في نظام الإسلام، فأين تذهبون ؟ ثم أين تذهبون ؟

قال بعضهم من قصيدة طويلة اجتماعية لَمَّا فُوجِئ في المجتمع بما لا عهد له به من قبل بالخروج على تقاليده الشريفة:

وغـدا النـاس في النسـآ شـركاءً ... فـاقْتَنِصْ مـا تشـاءُ قـنصَ الغـزالِ
أصبحَ الاختلاطُ والشربُ عرفًا ... وَانحـرافُ النِّسـاءِ وزَيْـغُ العيـالِ
هَـل خـلا بالنسـاءِ قـبلاً جنيـبٌ ... أو فتـاةٌ قـد زُيِّنَـتْ لاحتفـالِ
أو سَـمِعْتُم غناءَهـا أو رأيـتُم ... رَقْصَـها في تأنُّـثٍ ودَلالِ
راقصـاتٍ عَـرَّت مفاتنَهـا أو ... ناغمـاتٍ تغنَّجَـتْ لِلرِّجَـالِ
أيُّكـم يرتضـي لزوجتـهِ أو ... بنتـهِ ذَا أو بنـتِ عـمٍ وخـالِ
أحفظـتُم نسـاءَكم ورضـيتُمْ ... لسـواها السُّـقُوط في الأوحـالِ

إنَّ مَـن خـان غـيره خانَـه الغـيرُ وصـارَ الجميـعُ في الاختـلالِ
شـئتَ هَـذا أو لم تَشَـأْ فترقـبْ مَـا يـوافي بـه سـوادُ الليـالي
قـد فتحـتَ المجـال يفسُـدُ أهلـو كَ كأغيـارِهم بفـتحِ المجـالِ
إنهـا الأمهـاتُ والأخـتُ والـزو ـجَةُ والبنـتُ فالتفـتْ للمـآلِ
واحفَـظِ الأَبْعَـدِينَ فـيهنَّ يَحْفَـظْ ـكَ البَعيـدُونَ أو فَـذَاك بـذالِ
مـا حفظـتُم نسـاءَكم بَـلْ أَبَحْـتُم لِسـوَاكُم أعْرَاضَـهُنَّ الغَـوَالي
إذ أتَحْتُم لِلفَحْلِ غَزوَ الصياصي وَأَتَحْـتُم لَهَـا اختطـافَ الرِّجَـالِ
واقتنـاصَ الفتـاةِ مَـن تَشْـتَهِيْه مـن قـويٍّ أو ذي غـنى أو جمـالِ
هنـدُ كـالزوج في طمـوحٍ وميـلٍ نحـوَ مـن لم يكـن لهـا بحـلالِ
تشـتهي غـيرَ بعلِهـا فـإذا مـا سَـنَحَتْ فرصـةٌ رنـت للبعـالِ
وذكـاءُ الغيـورِ مهمـا تنـاهى لا يجـاري ذكـاءَ ذي الاحتيـالِ
حَسَنٌ ظنُّ الغيورِ بالفحل والفحـ ـلة سـخريةٌ لـدى الأنـذالِ
والتـواري تحـتَ الظهـورِ بطهـرٍ صـيَّرَ الأذكيـاءَ كالأغفـالِ

وما أكثر المتظاهرين بالديانة مكرا وخداعا، وفي المثل: ((صليت لك تقرب)).

ما استبحتُم معشار ما قد أبَحْتُم عـاركُم في الخفـاءِ والانسـلالِ
في حِمى المانِعاتِ للحملِ من عز لٍ ومـن عـازلٍ لـدى الإنـزالِ

أي إن كثيرا من الجرائم لا تظهر بسبب حبوب منع الحمل، أو لأجل العزل قبل الإنزال، أو لأن المرأة أو الرجل عقيم، أو لإجهاض مخفي، أو لغير ذلك.

يكـتُم العقـمُ بيـنكم وحبـوبٌ ... أغلـبَ الفحـش وامتطـاءُ العـزالِ
سل عن الوأدِ والحبوبِ وما الكيـ ... سُ وما العزلُ ما اختلافُ الرحـالِ
ثـورة الجـنس أنبـأتْكم بهـذا ... وافتتـانٌ في الخـدعِ والاحتيـالِ
كل ما في الخفاءِ في الكونِ يجْري ... عَـددَ القطـرِ والحصَـى والرِّمَـالِ
سَلْ عن الحقنِ للرِّجَال عن الإجْـ ... ـهاضِ والمسـقطاتِ للأحمـالِ
كل ما غاب عنكَ أضعافُ أضعا ... فِ اللـواتي تبـدو مـن الأعمـالِ
كلُّهـا تكـتُم الفجـورَ ومنْهَـا ... اخـتلاسُ اللقـاءِ والاتصـالِ
كَـم قنـوصٍ وقَانِصَـاتٍ جهـارًا ... وَهْوَ مِعْشار القنص في الانسلالِ

ثم نبَّه الشاعر إلى فضيلة ما كان الناس عليه من الدين والأخلاق والعادات والحجاب:

كم عفيفٍ وكم عفـائفَ والفضـ ... ـلُ لشـرعِ الحجـابِ والانسـدالِ
يلـهبُ الاخـتلاطُ نـارُ التَّشَـهي ... وانطفـاءُ اللـهيبِ بالانْفِصَـالِ
كـم تـردَّى فـتى وطاحـت فتـاةٌ ... في مَهـاوي السـفورِ والانفعـالِ
إن شـرعَ الحجـاب شـرعٌ حكيـمٌ ... قَـامعٌ للطمـوح بالإسـدالِ
وانضـباطُ النفـوس لا يتـأتى ... قـطُّ إلا في نـادرِ الأحـوالِ

عنـــدما يعضُـــد العقـــولَ حيـــاءٌ   أو يخـاف العقـابَ مرخـى العقـالِ

أي: لا يمنع المرخى عقاله إلا الخوف من العقاب العاجل من سلطان أو قريب، أو الآجل من الله.

فـــإذا لم يكـــن هنـــاك عقـــالٌ   داس أو داســت التُّقــى بالنعــالِ

كَـم أراكـا تُقَـى ليُخفـي فجـورًا   كـان أو كـيْ يكـونَ في اسـتقبالِ

الضمير المثنى في ((أراكا)) للفتى والفتاة المتظاهرين بالطهر خداعا.

فـــأعينوا انضـــباطَها بحجـــابٍ   لتعِفُّـــوا أو فَـــأْذَنوا بانشـــعالِ

كلُّنـــا يعـــرف الحقيقـــةَ لـــولا   زخـــرفُ القـــائلاتِ والقـــوالِ

وتغـــابي هلوعـــةٍ وهلـــوعٍ   والتَّرامـي علـى خسـيسِ الفعـالِ

إنَّ كيـــدَ النســـاء كيـــدٌ عظـيمٌ   ليس أدنى من كيدِ بعضِ الرِّجالِ

يعجِزُ الأذكيـاءُ عـن فهـمِ مـا تطـ   ـويهِ في السرِّ صـاحباتُ الحجـالِ

ولا يدعي أحد أن عالم الحجاب خال من الفساد، ولا أن عالم الاختلاط خال من العفاف، ولكن الحجاب أعون على الصلاح، والاختلاط يضاعف الانحراف والفساد، وما يترتب عليه من الشرور المتعددة أجناسا وألوانا، والتي يحدها من الشرق الغيظ والغضب والغيرة، ومن الغرب القهر والقتل والقتر، ومن الشمال إهانة الشرف والحرمات، وانتهاك الأعراض، واختلاط الأنساب، ومن الجنوب الشقاء والشؤم والشيوعية في شقائق الرجال، وأكرم شيء عليهم.

النتيجة: والخلاصة: الفساد مع السفور والاختلاط أكثر منه مع الحجاب بكثير، والسعادة والاستقامة مع الحجاب أكثر بكثير، والشقاء مع الحجاب أقل، ومع السفور أكثر، وسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم القائل: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

تعدد الزوجات واستثناء الوجه

يجب أن يضاف إلى الكلام في موضوع الاختلاط والسفور موضوعان لا غنى عن الكلام فيهما، أحدهما تعدد الزوجات والطلاق، والثاني: هل الوجه مما يستثنى من الحجاب ؟

فيقال في الأول:

من النساء من إذا حملت لا تقبل المقاربة حتى تضع، ومنهن من يستمر نفورهن حتى يفطمن، فيلاقي الزوج – إذ لا سواها – بذلك عنتا شديدا، لأن غريزة الإنسان – ولا سيما الذكر – مخالفة لغريزة الحيوانات.

ومن النساء ضعيفات الداعي، يشق بها الجماع أكثر من مرة في اليوم، وربما في أيام، ولا سيما إذا لم تكن المودة قوية، فإذا صادف أن الزوج في هذه الناحية قوي، عظم عليه العنت إن لم يكن له زوجة سواها.

ومنهن من لا تنسجم تماما مع الزوج، لسبب أو لآخر، أو أكثر، فربما تمنت لو أن زوجها غيره، حتى ولو كانت قوية في هذا الشأن، فإنها – وهو كذلك – فلن يسد أحدهما الفراغ القلبي، فيلقى أحدهما أو كلاهما مشقة لا فكاك منها، وخصوصا الزوج إذا لم يكن له زوجة سواها.

وهناك حالات متى عرض شيء منها للزوجة الوحيدة، أدرك الزوج عنت الأعزب، كوجود التهاب، أو حيض، أو نفاس، أو مرض معد، أو ألح عليها ضعف الكبر، أو غيره، حتى صرف عنها أو منها الرغبة في ذلك.

فماذا يكون حال الزوج لو منعه الشرع من إضافة زوجة أخرى، أَيَسْلُكُ طريق الفجور فَيَفْسُدُ ويُفْسِدُ، أو يسرح المسكينة التي لها عند الله أعظم الحق، وعند الناس الحق لخدمتها ورعايتها ومؤانستها والسهر متى اقتضى الحال بجانبها، أيدع هذه ويطلقها، ويتزوج، فيستحق لعنة الله والملائكة والناس أجمعين دواما، ويصبح هدف التعجب من حلم الله عليه كيف لم يخسف به الأرض، ويعجله إلى النار وبئس القرار، لتنكره الفظيع للوفاء للإنسانية والرحمة، وإهداره للواجبات العظيمة التي فرضت عليه لهذه الممتحنة ؟ أم يتزوج بأخرى ليسد حاجته وفاقته أولا، ثم لتشاركه في خدمة الأولى، أو على الأقل ليتمكن من أداء الواجب لزوجته الأولى.

إن الحق في هذا الصورة أجلى من ابن جلا، [١] وأوضح من الشمس في رائعة النهار.

هذا؛ والعوارض التي تعرض للمرأة منها ما يعم كل امرأة، ومنها ما يحصل في الغالب منهن، حتى لا تكاد تخلو نساء أسرة من بعضها:

وإذا البينـــات لم تغـــن شـــيئًا   فالتمـــاس الهـــدى بهـــن عنـــاء

ولله در القائل:

ولـيس يصـح في الأذهـان شـيء   إذا احتـــاج النـــهار إلى دليـــل

إذن فتعدد الزوجات هو في صالح المرأة أكثر مما هو في صالح الرجل، محقق وجالب للمصالح، صارف ودارئ للمفاسد بلا ريب.

هذا، ومن أهم ما تحلم به المرأة وتتوق إليه كالرجل أو أكثر منه هو الإنجاب الشرعي الذي تُعَلِّقُ عليه آمالها وأفراحها وأشواقها حاضرا ومستقبلا، وأن تجد بجانبها من يسرها ويؤنسها من بنين وبنات، فإذا حرمت من الزواج، فإما أن تنطوي على عذاب أليم من الكبت والحسرات، وإما أن تنحرف – وهي قاصمة الظهر –، وقد تنجب؛ لكن من سفاح، فإما أن تلقي بفلذة كبدها سرا على قارعة الطريق لتستر

---

[١] أنا ابن جلا : يضرب للمشهور المتعالَم، وهو من قول سُحَيم بن وَثيل الرِّياحيّ :

أنا ابْنُ جَلاَ وَطَلاَّع الثَّنَايا   مَتَى أضَعِ العمامة تَعْرِفُوني

خزيها وجرمها، فإما أن يعيش في كنف غيرها معلوما لها أو مجهولا، فتعيش هي أتعس حياة، تتململ دائما تململ السليم، وتبكي بكاء أشد حزين، سواء عاش يعاني من حالة نفسية قاسية لما يحس به من إساءة أبوية إليه، وإلباسه ثوب مذلة وانحطاط، أو مات طفلا.

وعلى كل حال، فلا مناص من أن تقاسي أمه طيلة حياتها ما هو أمر من العلقم؛ لما تشعر به من الجرم نحو ابنها الذي لم ينعم بحنانها وأمومتها يوما من الدهر، ولا نعمت بأمومتها والمسرة به وقتا من الأوقات، ولا ضمته حانية إلى صدرها مرة واحدة، ولا حنت ظهرها وضمته لرضاع أو حنج مريضا ولا صحيحا مرة واحدة.

وقد يفتضح أمرها، فتعيش مسلوبة الكرامة، ومولودها كذلك، ولا أشد من إحدى هذه الأحوال إلا الأخرى.

وإن كل عانس وأيم كما تحس بحرماها من الجنس في حياة كريمة لتحس مدى حياتها بحرمانها من الإنجاب أكثر من ذلك، وبحرمانها مما تتطلع إليه من ثمرات الإنجاب الطيبة وآمالها الشيقة حاضرا ومستقبلا، فإذا نظرت إلى أن الحائل بينها وبين هذا الخير والسعادة هو المنع من تعدد الزوجات لا غير، وفطنت إلى أن المشوه له أكبر تشويه هو المتزوجة والتشريع الوضعي لا السماوي، تحايلا من المتزوجة على العوانس والأيامى، لتقتصر السعادة عليها، ويقتصر الشقاء والحرمان عليهن، ألا

يفهمن عند هذا حكم القرآن ورعايته لجلب المصلحة للجميع ودرء المفاسد والفساد عن الجميع. نعم.

وهناك من لا يجد أزواجا إذا كان الزواج بأكثر من واحدة ممنوعا – لأن النساء غالبا أكثر عددا – فيعشن محرومات مما تسعد به المتزوجات من الحقوق المادية والمعنوية، وأهمها ذاك، إذ لا بديل مطلقا بوجه مشروع ، فيلاقين عنتا وحياة تعيسة، ومنهن من يدفعها العنت ويحملها السخط من حظها السيئ على بيع عرضها، فتعيش في أسوأ حياة؛ لشعورها بسحق سلوكها للكرامة، وبمرارة المهانة، والحرمان مما تتمتع به المتزوجات، والبغض الشديد لمن ولما حرم الزواج بأكثر من واحدة، لا سيما إنْ أنجبت من سفاح.

أما إذا كان بأكثر من واحدة مشروعا، ففيه فرصة، بل فرص لتنعم بالأمومة الشريفة، وينعم الولد بشرف النسب والحياة والميراث، لا بعقدة الحرمان المرير من كل ذلك، ولتشارك السعيدات في الحياة السعيدة الشريفة، والتمتع بكل الحقوق والكرامة.

وهناك من يفشل زواجهما، وتتكدر حياتهما، فإذا لم يكن ثمة الحل بالفراق والطلاق المشروع، واستبدال كل منها زوجا شرعيا، خسرا معا حياتهما، وعاشا في عذاب.

وهناك من تتأيم في شبابها، أو في كهولتها، فتعيش في ضنك بعد سعة، وكدر إذا كان المجتمع لا يسمح بأكثر من واحدة، بل ربما آل بها الحال إلى مهانة بعد الكرامة، وذل بعد عزة.

وكل هذا ينافي العدل الاجتماعي وسعادة أفراد المجتمع جميعا، الحاصلة بإتاحة الفرصة لكل أحد، ويصير السعادة والعدل مثل ((بخت يا نصيب)) وقمارا وميسرا، تربح به طائفة، وتشقى به طوائف، وبئس للظالمين بدلا.

لذلك كان شرع تعدد الزوجات حلاً عادلاً، وفي صالح الجنس اللطيف أكثر مما هو لصالح الرجل، وإنصافًا وفرصة لكل امرأة لكي تحصل على ما يجب لها من الحقوق، ومنعًا لشقاء بعضهن بإسعاد أخريات، كما يقال في المثل العامي اليمني الصنعاني: ((من سبر بختها ضحكت على أختها))، فلن تكون المؤمنة والمواطنة الصالحة مؤمنة ومواطنة صالحة من المتزوجات حتى ترى لأختها العانس ما ترى لنفسها، وأن تتخلى بالفعل عن الأنانية الذميمة التي طالما فضحها تكذيب منطقها وموقفها اليوم لمنطقها وموقفها بالأمس، فبينما هي عانس تقدح في التعدد إذ لم تحظ بخاطب أعزب، إذا بها تلبي خطبة متزوج، وتمدح وتمجد شريعة التعدد، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فإن المجتمعات التي لا تبيح التعدد قد استبدلته بمحض القبيح والظلم الصريح للمرأة، والأغلب يمارس الفجور بالعوانس والمتزوجات الخوائن، وربما بالعشرات وأكثر، فقد أكد غربي لما سئل

سؤال تحرٍ للواقع أنه قد عرف أربع مئة امرأة، فأي الحالين أرضى للزوجة، هل أن تشاركها ضرة أو ضرتان أوثلاث في النادر الشاذ جدا، أو أن تشاركها من لا يحصرهن تتبع ولا عدد ؟ ثم أي الحالين أرضى وأسعد للعانس: أحين تتخذ البغاء وسيلة لحياتها لعدم الأعزب، ولن يصلح البغاء وسيلة لحياتها إلا أيام شبابها، وهي في صحة خاضعة لرغبات غيرها وهواه، مستهانا بها في السريرة، فإذا ما وجدت منافسة أرغب منها تُنُوسِيَتْ وتُجُوهِلَتْ وكسد نفاقها، فإذا بلغت الصغار سن الشباب عبس في وجهها، وتولى من كانوا يهشون لها ويبشون، فإن لجت في الطلب وألحت في التعرض، استثقلت واستبعدت، وعادت بخفي حنين، وربما انتهرت وطردت طردا، فإن تقدم بها العمر لم تجد مواسيا ولا مؤاسيا، فهل هذا أرضى لها أم حين تكون ضرة تحيى حياة كريمة شريفة في حماية رجل يرعاها في كهولتها وشيخوختها، كما رعاها في شبابها خادما لها، موفرا حاجياتها، ومحترما لرغباتها، حافظا لمصالحها في صحتها ومرضها، وعسره ويسره، ولا سيما إن أنجبت ؟

أعتقد أن العدل في هذا مما لا يختلف عليه اثنان، إلا من ران على قلوبهم ما كانوا يعملون، ومن اتبع هواه حتى ختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصيرته غشاوة، فانتكس قلبها أو قلبه، حتى صار أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه.

لهذا كانت شريعة الله سبحانه قد وضعت حواجز بين الناس والفساد، تسعد مراعاتها الجنسين، وتخفف على الناس رجالا ونساءا فتنة بعضهم ببعض، وتمنع تكدر صفو الحياة أكثر من كل شريعة قد لا تحد ولا تعد مفاسدها.

أما الاختلاط، ومنع التعدد، والسفور، فإنها تذلل الصعاب لتفشي العهر، واختلاط الأنساب، والتسلح بأنياب الأسود ومخالبها، ليقهر الأقوى الأضعفين، وينتزع سعادتهم، ويسحقها، ويشرع العهر والفجور القهري، ومتى أصبح العهر مألوفا، فقد لا تجد في الألف عاهرة عاهرة واحدة تتحاشى الظهور به، فيقع في شباك الإغواء وفي حبالتها كثير ممن هب ودب.

هذا؛ ولا ريب أن في السافرات من هن أنقى من بياض العاج سلوكا ونية، لكن التشريع يراعي الأغلبية، وكما أن في الرجال متظاهرين بالصلاح وهم في الغيب فاسدون مفسدون، فإن في النساء من يتظاهرن لمن يغار عليهن بالعفاف، ويحكمن الكيد، حتى يعتقدها الغيور من الحافظات له في الغيب، ومن اللاتي يفتخر بهن، ولا سيما إن كان من ذوي البلادة، وإلى هذا أشارت الأبيات في الكلمة الأولى:

حسن ظن الغيور بالفحل والفحـ ـــلة ســـخرية لـــدى الأنـــذالِ
والتـواري تحـتَ الظهـورِ بطهـرٍ صـــيَّر الأذكيـــاءَ كالأغفـــالِ

فتلخص أن التعدد حل عادل حكيم، والاختلاط مخل بسعادة المتوسطات حسنا، ومن دونهن من باب أولى، حيث يتيح الفرص لأزواجهن أن يروا الفائقات حسنا، فتعلق بهن القلوب، ويزهدوا في نسائهم فيتعذبن بالغيرة ممن فتنَّ أزواجهن، وربما دفعتهن الغيرة والشعور بعقدة سوء الحظ إلى الخيانة، ولا بُدَّ أن يجدن المطلوب، فـ ((كل كاسدة يوما لها سوق)). وربما دفعت الحال أزواج الدنياوات إلى مزاحمة أزواج الجميلات في جميلاتهم، وربما وجدت هذه الجميلات من يعجبن به من غير أزواجهن، ولا بُدَّ أن يجدن من تشرئب أنفسهن إليهم، وكل جميلة لا بُدَّ أن تجد من منافساتها في الحسن من هي أعجب إلى زوجها منها، فيعيش الجميع في شقاء نفسي، وعيش بئيس، بخلاف المجتمع الحجابي الانفصالي، فإنه أعون بكثير على تمشية الحال في هناء واقتناع وسعادة مدى الحياة.

أما الموضوع الثاني، فقد كتبت فيه رسالة قبل أربعين عاما تقريبًا، دَلَّلْتُ فيه على أن تسعة أعشار الجمال والفتنة هي في الوجه، وعشر فقط توزع على سائر مواقع الفتنة في المرأة، ولعل فرصة تأتي لتسجيل ملخصها في هذا المجلد من البروق اليمانية إن شاء الله، وسبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم القائل: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل:٧٤].

إن الرجل مسلّح بمخالب الإقدام والجرأة، ومزود بأنياب الجشع بالذات في المرأة، فإذا برقت له بارقة أمل في التمكن منها، فلا يرده راد، اللهم إلا واحدة من اثنتين:

أولاهما: إذا كان من أولي النهي والتقوى، نظّارا إلى عواقب الأمور، وهاتان الصفتان أعز من بيض الأنوق، على أنهما كثيرا ما ينهزمان عند مساورة الطمع، ومقاومة غريزة الهلع والجشع عند ثورة الغلمة، والهيجان الشهواني.

وثانيتها: خوف سطوة الحمية من الزوج وأولياء المرأة، فإذا أمنا معا بتجاوب رغبتها لجشعه، وتعاونا بالمغافلة والمخاتلة، فَلِسَان حالهما عند هذا: ((وعما جرى بيننا لا تسل))، والمرأة شقيقة الرجل في كل شيء، لكن بصورة أخف في الغالب إقداما، وأكثر إحجاما، وأقل تهالكا وتراميا على مشتهاها؛ لأن حظها من الحياء والخوف أكثر من حظه، لكنها عندما تثيرها الرغبة ((وفي قصة التي روادته عن نفسه وغلقت الأبواب، وقالت هيت لك قال معاذ الله ما يكفي ويشفي لحال وأخلاق الجنسين))، فهي عند غليان الغلمة وهيجان الرغبة تتصنع للرجل، ولو كان غافلا عنها، تتصنع له بالدلال والحركات، والتكسر في مشيتها، والنظرات والبسمات

والنغمات، فتستفز أقدامه، وتحطم إحجامه، وعندها تنسف الحواجز والجسور، كما قال ديك الجن[1]:

وعزمت فيك على دخول النار

لذلك شرع الحجاب، وعدم الاختلاط؛ لأن ذلك أعون على سلوك الجادة، وأهون فتنة، ومن زعم أن القرآن يأذن بسفور الوجه، وهو محط الفتنة، فقد جهل الشرع والحكمة فيه، وبعض تجاهل وأَوَّلَ القرآن على هواه؛ ليفتح أبواب الشرور والفساد على مصراعيها ولسان حاله يقول شعر الخنفرى:

خذي الدف يا هذه واضربي

﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[البقرة:٧٩]

ولكي يزداد الذين آمنوا إيمانا، ولا يرتاب المبطلون في باطلهم، ولكي تكتمل الصورة عند القارئ، يحسن جدا أن أنتزع جملا باختصار من مقالة لمحمود الإستانبولي تحت عنوان: ((هذا أو الجنون)) ؛ ردَّ فيها على كتاب: ((هذا أو الطوفان))؛ الكتاب الذي رجع عنه مؤلفه أخيرا، وعاد إلى الصواب.

والذي حسَّن نقلها هو أن شُبَهَ الكتاب لا تزال عالقة بأذهان المعاندين، أو ليبرروا بها مواقفهم الخاضعة للأهواء، فلا بُدَّ أن يقف على الرد عليها

[1] سبق ذكره .

من يُخشى عليه الانخداع بها، فكن على حذر من سحر التشكيك بتحسين القبيح، وتقبيح الحسن، فإن من البيان لسحرًا، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾[الأنعام:١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ [الأنعام:١٣٧] ويقول: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝ ﴾ [يونس:٤٠].

وقد اقتضى الاختصار تبديلا يسيرا لبعض كلمات، مع الاحتفاظ بالمعنى. قال الإستانبولي:

"وقد زعم المؤلف أنه إنما تكون الفضيلة فضيلة، وتكون الرذيلة رذيلة؛ بحسب تواضع الناس على ذلك، لا أن الفضيلة فضيلة في ذاتها، ولا الرذيلة رذيلة في ذاتها. فإذا اصطلح المجتمع على تقديم الزوجة والبنت للأضياف، فهي فضيلة؛ كما كان ذلك في زمن ومكان ما، وكان الانتحار إذ ذاك أيضًا فضيلة، وعندما يتواضعون على اعتبار ذلك رذيلة، يكون رذيلة ". فقال الكاتب:

إنه كان في فترة من تأريخ الإنسان الموغل في القدم تقاليد؛ منها هذه، ولكنا لا نسميه فضيلة إلا إذا جاز أن نسمي نفس هذا التقليد الذي نراه

اليوم في صورة مزيفة بزخرف الحضارة الحديثة فضيلة، عندما يقدم الديوث زوجته أو بنته أو أخته لرجل؛ طمعا في منصب أو مال، أو جريا وراء تبادل الصيد زوجة بزوجة أو أختا بأخت؛ كما هو واقع اليوم في بعض البلدان الغربية التي يموت الكاتب غراما بحضارها، وفي بعض البلدان الشرقية التي سرت إليها العدوى، ولحقها التيار، فليس هناك من فرق إلا في إطار الصورة وغلاف الكتاب، أما الصورة والكتاب فهما كما كانا من قبل، ومع ذلك؛ فلن نسمي فعلة الديوث فضيلة كما سماها المؤلف؛ سواء رجعنا إلى الهمجية الأولى، أو إلى تأريخ القرن العشرين الذي نعيش فيه؛ لذلك يتبين جهل الكاتب وجراءته على نبي الله لوط حين قال: إنه قدم بناته لضيوفه كما يفعل الديوث. والفارق بين الفعلين بعيد، ولمسألة لوط أسباها، فقد ابْتُلِيَ بقوم يأتون الذكران من العالمين، وحين بعث الله إليه وفدا من الملائكة في صورة فتيان صباح؛ اقتحم عليه قومهُ الدار يريدون نيل ضيفه، ولم يكتفوا بأن عصوه حتى هجموا على ضيفه، فقال: هؤلاء بناتي هن أطهر لكم. لا ريب أنه أراد عليه السلام أن يتزوجوهن؛ ليصرفهم عن ضيفه، أو أراد بنات أمته على المجاز، وغرضه على كل النكاح لا السفاح المستقى من التوارة المحرفة.

وقد نسي المؤلف أن عادة الانتحار لا تزال موجودة في المجتمعات الراقية؛ كاليابان، وتقديم الزوجة والبنت لا يزال موجودا في بعض أقطار القطب الشمالي، فأين هذا التطور المزعوم ؟

ليست القضية قضية تطور، بل هي فوضى؛ لعدم وجود نظم إلهية هناك، كالتي أنعم الله بها علينا، وأنقذنا بها من هذه الفوضى.

(أقول: يعني عدم تطبيقها، أما هي فهي موجودة منذ كان آدم، وكان الناس أمة واحدة، فاختلفوا، فمنهم كافر، ومنهم مؤمن).

ثم ذكر الإستانبولي عن المؤلف ما قد يؤثر على نفس السامع تحت عنوان مسؤولية المجتمع؛ قال:

إن أصول الأخلاق الاجتماعية، وفضائل الناس ورذائلهم، بنات المجتمع، وحفيدات الزمن والمجتمع. أي مجتمع هو الوعاء الذي يحتوينا داخل محيطه، ونحن فيه كالماء؛ نتلون بلون إنائنا، وكما يبدوا الماء أحمر إذا وضع في وعاء أحمر نبدوا نحن ولنا لون المجتمع الذي يستوعبنا، بل إن الأمر أخطر، فالماء لا يفقد خصائصه ومذاقه، أما نحن فنفقد الكثير من خصائصنا". انتهى.

ورد الإستانبولي بقوله: إن هذا الهراء ليس من عنده، إنه نظرية خاطئة لبعض الفلاسفة؛ فيها شيء من الحقيقة، فللبيئة الاجتماعية بعض التأثير

على أفرادها، ولكن ليس إلى الحد الذي يرفع عنهم أية تبعة، ويجعلهم كالأنعام في الحظيرة، ويصبح الفرد كريشة في مهب الرياح، إنما هو امرؤ له عقله وإرادته وحريته.

ثم ذكر رأي المؤلف تحت عنوان: (مشكلة الجنس)؛ قال: علينا أن نذكر أن الإنسانية؛ من آلاف السنين وهي تكافح الخطيئة الجنسية بالمواعظ والزواجر، ولئن كان الخوف الديني قد حقق بعض الانتصارات، إلا أنه في معظم حالاته كان يفضي إلى إحدى السوأتين؛ إما تحدي الدين وخلع الطاعة، أو تحرج ديني يسوق صاحبه إلى كبت صاعق، حتى اكتشف العلم أخيرا الوسيلة التي تبقي على الولائين؛ الولاء للدين والولاء للفضيلة، لما رأى للأمراض الخلقية صفة جبرية لا يفيد الوعظ في علاجها.

(أقول: لاحظ مناقضة هذه الجملة لقوله قبل ذلك: إن الوعظ قد حقق بعض الانتصارات. تم قولي).

ثم قال الكاتب: فهمنا من كلام المؤلف أن الوعظ قد أفلس في محاربة القضايا الجنسية، وحق له برأينا أن يفلس؛ لأنه مع الوعظ دعا إلى مقدمات كثيرة لمنع الخطيئة، وذكر الزواج المبكر، وإعانة الفقير على ذلك، وتيسير المهور، وتجنب النظرات المتعمدة من الجنسين، والخلوات المريبة التي تثير الأعصاب ولا ينفع معها علاج. ورغم أنها أينما طبقت

استأصلت السفاح؛ إلا أن المؤلف زعم أن العلم الحديث حل المشكلة بعدما عجز الدين عن حلها.. حتى قال الكاتب:

وقد أخذ المؤلف باللف والدوران في بيان حلول العلم، فإذا هي تدور حول لزوم اتخاذ الاختلاط شرعة ومنهاجا، وزعم أن المجتمع الانفصالي سبب جميع هذه الآفات.... ونقول له:

إذا كان الاختلاط مفيدا في التخلص من الجرائم الجنسية، فلماذا لم يفد هذا العلاج في أوروبا وأمريكا، وهم مختلطون إلى درجة الكلاب والقطط، والأمراض الجنسية منتشرة، والزناة يرتكبون الفاحشة كالخنازير على قارعة الطرقات؟!

وقد كفانا المؤلف مؤنة البحث عن حوادث، حيث قال صفحة (١٢٣): نشرت الكاتبة الأمريكية مرجريت بانبج مقالاً في مجلة المختار عام ١٩٤٧م؛ قالت فيه: نحن نعلم أيضا أنه يسجل في الولايات المتحدة أسماء نصف مليون أمّ لا زوج لها في كل سنة، وأن كثيرا من أمثالهن لا تسجل أسماؤهن؛ لأنهن يجدن من المال والجاه ما يعينهن على التخلص من تسجيل أسمائهن، وأن كثيرا من عقود الزواج قد تبين فيما بعد أنها تمت بعد الحمل من سفاح، وأن أساليب ضبط النسل والإجهاض تمنع ظهور الأمومة في كثير من العلاقات غير المشروعة.

ثم قالت: وتدل الأرقام أن هناك عددا هائلا من النساء يلجأن إلى من يزاولون الإجهاض، ومن هؤلاء تفيض أرواح عشرة آلاف سيدة في كل عام على يد الذين يزاولون هذا الإجهاض.

(أقول: فكم يا ترى عدد من نجحت معهن العملية، وهن الأغلبية عادة ؟ تم قولي).

وهناك إحصاءات كثيرة فيها عن الحال الجنسية السيئة في فرنسا وإنكلترا وغيرهما من بلدان أوروبا، ومع هذا؛ فقد جهل المؤلف أن المجتمع الإسلامي لا يعد انفصاليا، فقد كان المسلمون والمسلمات يجتمعون في المساجد بحجاب شرعي لا يصف أو يكشف عما تحته، إنه حجاب العفة والذوق السليم لا الذوق المريض طبعا. حجاب العفة.

ثم قال: قال المؤلف: والمجتمع الانفصالي يعيش في ذعر دائم من الخطيئة الجنسية، ولكن ذعره لا يحول بينه وبين موبقاها، ألا وهو الكبت، فمحاربة الخطيئة بالكبت تساوي إطفاء النار بقاذفات اللهب، والكبت – كما نعنيه –: إغلاق باب النمو أمام المراحل الوافدة من حياتنا وتطورنا، ذلك أن لكل منا في كل مرحلة من مراحل عمره ميولاً وأخلاقًا خاصة، إذا وفِّق لإشباع كل طور من هذه الأطوار إشباعا لائقا؛ فإنه يظل بمنأى عن العواصف والانحرافات، أما إذا حرم نفسه من أن تنال حظها؛ فإن

حياته تتعقد، ويظل هناك طائف مُلِحّ ينادي بالثأر للمرحلة التي أضاع حقها.

(أقول: أليس هذا دعوة لمزاولة الفواحش؟!)

ثم يقول بعد هذا: ماذا يفعل فتى أو فتاة انبثقت فيهما غريزة الجنس، ودقت الأجراس معلنة عن قدومها، ومطالبة بحق الضيف من زاد وماء ؟ ! أندعو الفتى للزواج وهو لا يستطيع أن يعول نفسه فضلا عن أن يعول زوجة وولدا؟! أندعوهما للصوم والجوع؟! إن هذا هو الكبت بعينه.

ولعل قائل يقول: إذن فأنت تريد الفسوق والانحلال. فأجيب: كلا، ولن أراه إلا دمارا ووبالا؛ إنما أريد الفضيلة المتألقة.

(أقول: تأمل للتناقض في كلامه).

وخلاصة اقتراح المؤلف لحل الأزمة هو الاختلاط والرقص للتنفيس عن الغريزة، ومعرفة المزاج قبل الزواج، فهو يود أن نعمل ما يعمله الغربيون؛ لننجو من المشكلة.

والغريب أن التجربة التي يريدها هي التي جربها الغربيون، فوقعوا في شر أعمالهم، و لم تعد المدينة في فرنسا قاصرة على ما استحسنه هذا المخمور من اختلاط ورقص، بل وصلت إلى حد الإباحية التامة، والعري الكامل، والتخلي عن كل الفضائل، والعود إلى ما عليه أخس أصناف الحيوان من قلة مروءة؛ كالخنازير، وحتى إن علماء النفس الغربيين لم يسفوا أسفافه

من وصف علاج الكبت الجنسي، وإنما دعوا المراهقين على قاعدة التسامي بهذه الغريزة، وتحويل دوافعها الخفية إلى حب لبعض العلوم المفيدة؛ كالأدب وغيره، مما يفيد الإنسان، ويصرفه عن العهر، مع العلم بأن الرقص والاختلاط السائدين في هذه البلاد، وسهولة الاتصال بالمرأة في المدرسة والمجتمع والحدائق العامة، لم يحل المشكلات الجنسية المختلفة.

والمؤلف إنما اقتبس موضوعه من مصادر أجنبية، حملت على الدين النصراني؛ ناسيا الفرق بينه وبين الإسلام، الذي فتح باب الاستمتاع بطيبات الدنيا – بحدود العقل – على مصراعيه، ويذكرنا بهذه المناسبة بحكاية الحمار حامل الإسفنج؛ إذ حاول أن يقلد حمارا يحمل الملح، فنزل في البحر، فخف حمله. وقد أخطأ في تعريف الكبت خطأ ندركه من تعريف العالم النفساني فرويد له.

وقد رأينا أن نرد عليه ببحث اقتبسناه من كتاب ((شبهات الإسلام)) لمحمد قطب (ص ١٥٥)؛ قال:

انظروا ما قال علماء النفس الغربيون عن الدين؛ قالوا: إنه يكبت النشاط الحيوي للإنسان، وينكد حياته؛ نتيجة الشعور بالإثم، وأن ما يصنعونه خطايا لا يطهرها إلا الامتناع عن ملذات الحياة، وقد ظلت أوروبا غارقة في الظلام طوال تمسكها بالدين، فلما نبذت قيوده السخيفة؛ تحررت مشاعرها من الداخل، وانطلقت في عامل العمل والإنتاج.

أتريدون أن تعودوا إلى الدين وتكبلوا المشاعر التي أطلقناها، وتنكدوا على الشباب بقولكم: هذا حلال وهذا حرام.

ونترك أوروبا تقول في دينها ما تشاء؛ لأننا لا نتحدث عن الدين عامة، وإنما نتحدث عن الإسلام.

وقبل أن نذكر شيئا عن كبت الإسلام للنشاط الحيوي أو عدم كبته؛ ينبغي أن نعرف ما هو الكبت؛ لأن هذه اللفظة كثيرا ما يُساءُ فهمها واستخدامها في كلام المثقفين.

ليس الكبت الامتناع عن إتيان العمل الغريزي، إنما هو ما ينشأ من استقذار الدافع الغريزي في ذاته، وعدم اعتراف الإنسان بينه وبين نفسه أن هذا الدافع يجوز أن يخطر بالبال.

والكبت بهذا المعنى مسألة لا شعورية، وقد لا يعالجها إتيان العمل الغريزي، فالذي يأتيه – وفي شعوره أنه يرتكب قذارة لا تليق به – يعاني الكبت، حتى لو ارتكب هذا العمل عشرين مرة كل يوم؛ لأن الصراع سيقوم داخل نفسه بين ما يعمل وما كان يجب أن يَعْملَ، وهذا الشد والجذب في الشعور وفي اللاشعور هو الذي ينشئ العقد النفسية.

(أقول: والناشئ عن هذا هو المسمى بالكبت).

هذا هو تفسير فرويد للكبت الذي أنفق حياته في هذه المباحث وفي التنديد بالدين، فهو يقول: ويجب أن نفرق تفريقًا حاسمًا بين هذا الكبت اللاشعوري وبين عدم الإتيان بالعمل الغريزي، فهذا مجرد تعليق للعمل.

والآن وقد عرفنا أن الكبت هو استقذار الدافع الغريزي، لا تعليق التنفيذ إلى أجل.

نتحدث عن الكبت في الإسلام: ليس في الأديان ما هو أصرح من الإسلام في الاعتراف بالدوافع الفطرية؛ يقول القرآن: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ﴾؛[الأنعام:١٤] جمع في الآية الكريمة كل شهوات الأرض، واعترف بأنها واقع مُزَيَّنٌ للناس، لا اعتراض عليه في ذاته، ولا إنكار على من يحس بهذه الشهوات.

صحيح أنه لا يبيح للناس أن ينساقوا مع شهواتهم إلى المدى الذي يصبحون فيه مستعبدين لها، فالحياة لا تستقيم بهذا الوضع، وأن يهبطوا إلى عالم الحيوان، ولكن هناك فرقا هائلا بين هذا وبين الكبت اللاشعوري؛ بمعنى استقذار هذه الشهوات في ذاتها، ومحاولة الامتناع عن الإحساس بها، رغبة في التطهر والارتفاع.

وطريقة الإسلام في معاملة النفس الإنسانية هي الاعتراف بالشهوات كلها من حيث المبدإ؛ حرصا على عدم كبتها في اللاشعور، ثم إباحة التنفيذ العملي لها في الحدود التي تعطي قسطا معقولا من المتاع، وتمنع وقوع الضرر؛ سواء على فرد بعينه، أو المجموع كله، وحسبنا من ضرر الفرد من استغراقه في الشهوات إفناء طاقته الحيوية قبل موعدها التي خلقها

الله لأهداف شتى، واستعباد شهواته له، حتى تصبح شغله الشاغل، وهمه المقعد المقيم، وعذابا لا يهدأ، وجوعا لا يشبع.

وحسبنا من الضرر الذي يلحق المجتمع استنفاد الطاقة التي خلقها الله لأهداف شتى في هدف واحد، وإهمال الأخرى الجديرة بالتحقيق، فضلا عن تحطيم كيان الأسر، وفَكّ روابط المجتمع، وتحويلهم إلى جماعات متفرقة لا يجمعها رابط ولا هدف، مما يسهل على غيرهم تحطيمهم كما حدث لفرنسا.

وفي الحدود التي تمنع الضرر يبيح الإسلام الاستمتاع بطيبات الحياة، بل يدعو إليه، فيقول مستنكرا: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ ﴾،[الأعراف:٣٢] ويقول: ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾،[القصص:٧٧] ويقول: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ ﴾، [الأعراف:٣١] بل يصل في صراحته بالإحساس الجنسي خاصة – وهو مدار البحث عن الكبت في الأديان – أن يقول الرسول الكريم ﷺ: ((حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة))، [1] فيرفع الإحساس الجنسي إلى درجة الطيب؛ أزكى رائحة في الأرض، والصلاة؛

---

[1] أخرجه النسائي ٧/ ٦٢ رقم ٣٩٤١ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ١٦٠ . وأحمد بن حنبل ٢٥٦/٤ رقم ١٢٢٩٥ ـ، ١٢٢٩٦ .

أزكى ما يتقرب به الإنسان لله جل جلاله. ويقول في صراحة: إن الرجل يثاب على العمل الجنسي يأتيه مع زوجته.

ومن هنا لا ينشأ الكبت في الإسلام، وإنما يطلب في الإسلام ضبط الشهوات دون كبتها، يضبطها في وعيه، وبإرادته، وليس في لا شعوره، أي: يعلق تنفيذها إلى الوقت المناسب، وليس التعليق كبتا باعتراف فرويد، وليس فيه من إرهاق الأعصاب ما في الكبت، ولا يؤدي إلى العقد والاضطرابات النفسية.

ولسيت هذه الدعوة إلى ضبط الشهوات تحكما يقصد به الإسلام حرمان الناس من المتاع، فالتاريخ يقرر أنه ما من أمة استطاعت أن تحافظ على كيانها وهي عاجزة عن ضبط شهواتها ،كما يقرر من الجانب الآخر أنه ما من أمة ثبتت في الصراع الدولي؛ إلا كان أهلها مدربين على احتمالات المشقات، قادرين على إرجاء ملذاتها أو تعليقها حين تقضي الضرورة ساعات أو أيامًا أو سنوات، ومن هنا حكمة الصوم في الإسلام.

والمتحللون اليوم من التقدميين والتقدميات يحسبون أنفسهم قد اكتشفوا حقيقة هائلة؛ يقولون: ما هذا السخف الذي يدعو إلى تعذيب الأبدان بالجوع والعطش وحرمان النفس مما تتوق إليه في سبيل لا شيء؟! وإطاعة لأوامر تحكمية لا حكمة لها ولا غاية؟!

ولكن ما الإنسان بلا ضوابط؟! وكيف يصبح إنسانا وهو لا يطيق الامتناع سويعات عما يريد؟! وكيف يصبر على جهاد الشر في الأرض وهذا الجهاد يتطلب منه حرمان نفسه من كثير؟! وهل كان الشيوعيون يستطيعون الصمود في ستالينغراد لو أنهم لم يدربوا على احتمال المشقات العنيفة التي تعذب الأبدان والنفوس؛ يحلونه حين يصدر الأمر به من الدولة؛ لأنها سلطة مرئية تملك العقاب السريع، ويحرِّمونه هو ذاته حين يصدر الأمر به من الله خالق الدول والأحياء؟!

وماذا في الإسلام من العبادات غير الصيام؟ والصلاة هل تستغرق من وقت المسلم التقي في الأسبوع كله أكثر مما تستغرق زيارة واحدة للسينما ؟ وهل يضحي الإنسان بهذه الفرصة المتاحة للاتصال بالله سبحانه وتعالى، وتلقي المعونة منه، والاطمئنان إليه، واسترواح الراحة في رحابه إلا وفي قلبه مرض وفي نفسه انحراف؟!

أما ما يقال من تنكيد الدين على أتباعه، ومطاردته لهم بشبح الخطيئة في يقظتهم ومنامهم، فما أبعد الإسلام عنه ! وهو الذي يمنح المغفرة قبل أن يذكر العذاب.

إن الخطيئة في الإسلام ليست غولا يطارد الناس، ولا ظلاما لا ينقشع، خطيئة آدم الكبرى لا تحتاج إلى فداء؛ ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ ﴾...هكذا في بساطة، ودون أية إجراءات. وآيات المغفرة

والتوبة كثيرة في القرآن؛ حسبنا منها: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٦]. فهل بعد ذلك شك في عفو الله ومغفرته؟! وأين يطارد العذاب نفوس الناس والله يلقاهم بهذا العطف والترحيب بكلمة واحدة صادقة يقولونها؛ **التوبة**؟!

إنها إرادة ذاتية لله سبحانه أن يغفر للناس؛ ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء :١٤٧].

نعم؛ ما يفعل الله بتعذيب الناس وهو غني عن ذلك، وهو الذي يحب أن يمنحهم الرحمة والغفران.

ويقول الأستاذ محمد الغزالي في كتابه ((ليس من الإسلام في شيء)) تحت عنوان ((الزواج وروابط الأسرة)):

الشقة بعيدة بين أدب الإسلام في علاقة الذكر بالأنثى وبين تقاليد الحاضرة الحديثة التي نضحت على الشرق من الغرب، كما أن الشقة بعيدة بين أدب الإسلام وبين ما يطلبه باسم الإسلام بعض الجهلة بوظيفة المرأة في المجتمع.. إن المرأة المطروحة وراء سجن من الجهل والعمى يموت معها نصف الأمة، ويمرض النصف الآخرة، والمرأة المتروكة للغي والهوى تضطرب معها الأمة كلها، ويلعب بزمامها شيطان، والأمة الإسلامية الآن نصفان، نصف لا مكان للمرأة فيها كاليمن والحجاز

(**أقول: لو علم أن المرأة تعمل هناك أكثر من الرجل ما مَثَّلَ بهما. تم قولي**) .

ونصف مكان المرأة فيه غلط، وموقعها فيه حائر جائر؛ كما هي الحال عندنا في مصر وسوريا، ولا ندري متى نخلص من هذه النقائص.

لعل الغريزة الجنسية من أنشط الغرائز في دماء الناس، وحسابها لا يُنسى في ميدان الاقتصاد والتربية، فإن ضوابطها المادية والأدبية سواء في ضرورة الحيطة والعناية، ولا يتجاهل هذه الغريزة منذ يقظتها إلا من أغمض عينيه وأصم أذنيه عن الصراخ، والفطرة التي تصدر عنها شرائع الإسلام هدت هذه الغريزة إلى صراط مستقيم، فلا هي قتلتها بالرهبنة، ولا هي أطغتها بالإباحية، لقد أتاحت لها أن تتنفس، وأن تؤدي وظيفتها العتيدة؛ لا في استدامة الحياة الإنسانية فحسب، بل في تلطيفها بالحب والتعاون والرحمة.

وحضارة الغرب الحديث تشبه الإسلام في اعترافها بهذه الغريزة، وتخالف الأديان كلها في أن جعلت التسول الجنسي الواسع علاج همهما، ولا شك أن أوروبا دللت الحيوان المتنزي في دماء البشر، فيسرت الاختلاط المطلق، وقبلت في برود جميع نتائجه السيئة، وتواصت بالسكوت عليها.

وشرائع الله التي بلغها موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام أنزه من أن تُقِرَّ هذه الحال، أو تأذن بها، ولنتبرك بختم المقالة بقول الله سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[يونس:٤٠-٤٤]

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم....

الفهرس

نبذة عن المؤلف.. ٢
مقدمة.. ٤
مضار النظر على الفرد والأسرة... ١١
أثر تطبيق الإسلام في هذه القضية ١٤
تعدد الزوجات واستثناء الوجه... ٣٩
الفهرس ٦٦